

تحديات سنة ٢٠٠٠

توفيق الحكيم

SS

توفيق الحكيم

تحديات سنة ٢٠٠٠

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ـــ محمد ﷺ (سيرة حوارية)	١٩٣٦
٢ ـــ عودة الروح (رواية)	١٩٣٣
٣ ـــ أهل الكهف (مسرحية)	١٩٣٣
٤ ـــ شهر زاد (مسرحية)	١٩٣٤
٥ ـــ يوميات نائب فى الأرياف (رواية)	١٩٣٧
٦ ـــ عصفور من الشرق (رواية)	١٩٣٨
٧ ـــ تحت شمس الفكر (مقالات)	١٩٣٨
٨ ـــ أشعب (رواية)	١٩٣٨
٩ ـــ عهد الشيطان (قصص فلسفية)	١٩٣٨
١٠ ـــ حمارى قال لى (مقالات)	١٩٣٨
١١ ـــ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	١٩٣٩
١٢ ـــ راقصة المعبد (روايات قصيرة)	١٩٣٩
١٣ ـــ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة)	١٩٤٠
١٤ ـــ حمار الحكيم (رواية)	١٩٤٠
١٥ ـــ سلطان الظلام (قصص سياسية)	١٩٤١
١٦ ـــ من البرج العاجى (مقالات قصيرة)	١٩٤١
١٧ ـــ تحت المصباح الأخضر (مقالات)	١٩٤٢
١٨ ـــ بجماليون (مسرحية)	١٩٤٢
١٩ ـــ سليمان الحكيم (مسرحية)	١٩٤٣
٢٠ ـــ زهرة العمر (سيرة ذاتية ـــ رسائل)	١٩٤٣
٢١ ـــ الرباط المقدس (رواية)	١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتيننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى ليننجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزيــــة فى أمريكــــا بدار نشر (ثرى كنتننتــــــزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجـــم ونشر بالفرنسيــــة فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلـة الحكـم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيــة فى أمريكــــا بذار نشر (ثرى كنتننتـــــز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣ .

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ونـدر ونشر دار ماكملان — لندن .

إهداء

إلى روح ابنى إسماعيل
الذى ذهب منذ عام
للقاء ربه وهو فى الثلاثين
قبل أن يرى سنة ٢٠٠٠

توفيق الحكيم

حوار ضاحك

بين السادات والحكيم

دار حوار ضاحك بين الرئيس السادات وتوفيق الحكيم حول دفع رسوم عضوية اتحاد الكتاب، وقال الرئيس مداعبا توفيق الحكيم: ولكنك لم تدفع الرسوم.. فأجاب توفيق الحكيم بأنه دفع مرتين ولكنهم يدعون غير ذلك، ولم يسلموا إلىّ إيصالات..

ثم وجه الحكيم حديثه إلى الرئيس السادات قائلا: إن من يعبر عن أصالة مصر هو أنور السادات اليوم.. إننا قدمنا لكى نكرم أنور السادات ولكنه بادر بتكريمنا.. دليل على أن الكرم فى طبعه.. وقال مداعبا: ولكن الكرم ليس فى طبعنا نحن.

فأجاب الرئيس: أنتم الذين علمتمونا، ويجب أن نعترف بذلك.

واستطرد الحكيم: إن ما أعطيتموه لمصر لا يمكن لأى قلم أن يعبر عنه ولا الكلام، لأننا عندما نتصور أن مصر قبل أنور السادات كانت فى حالة تمزق وهزيمة وبعد ذلك استردت أنفاسها، فهذا يعنى عطاء كبيرا جدا. وأقل ما يجب أن نقدمه فى الواقع ليس فقط الشكر، ولكن أيضا العرفان بالجميل.. لأن أنور السادات كان هو نورا جديدا فى الظلام الذى كنا فيه.

ونرجو منك يا سيادة الرئيس انضمامك إلى اتحاد الكتاب، ورئاستك الفخرية تسير بنا إلى الأمام، ويشملنا نور آخر بمجهودات القلم

إن شاء الله .

فرد الرئيس قائلا : إنه قبل الاحتفال بعيد الفن فى أكتوبر إن شاء الله، أرجو أن نكون قد وصلنا فعلا إلى الأمور التنفيذية لكل هذا . أنا دائما باحلم بحاجة ، إن أى أديب فى بلدنا لا يستطيع أن يعيش على انتاجه . طيب ليه بره الأديب الفنان فى عمل أو عملية بيعيش مدى حياته ، وعندنا لا ؟وده كله لازم ننتهى منه ، ولازم كأحسن ما يطبق فى أحسن دول العالم . أحسن دول العالم نحن قبلها بـ ٧ آلاف سنة .. لما كانوا لسة فى الكهوف احنا كان عندنا حضارة ، وكان عندنا حكومة ، وكان عندنا دولة والله .فى هذا أنا أرجو حقوق التأليف لأداء كل هذا بإذن الله .. لازم نفرغ منه فى الحال . ليه ؟ لأنه زى ما قلت لكم احنا خلاص استردينا مصر لنا حرة وإرادتنا حرة ولا معقب علينا ، وعلينا أن نختار الطريق الذى نريده والبناء الذى نريده ، طيب ليه ما منعشّ كلنا فعلا كلٌّ وهو يؤدى لهذا البلد آمنا مطمئنا . ليه ؟ده أساس .

وأضاف الرئيس : أنتم أسعدتونى حقيقة لأنى دى رسالة كبيرة وعميقة فأسعد قوى بها ، وفرصة طيبة أن ألتقى بكم لأنه لأول مرة التقى بهذا الجمع الكبير من كتاب مصر . وأرجو إن شاء الله إنه فى الاتحاد نستطيع من وقت لآخر نلتقى ونناقش ونتعلم أكثر من العجوز ده « مشيرا إلى الحكيم ومداعبا » ..

تحديات سنه ٢٠٠٠

كان هذا هو موضوع الاجتماع الذى عقد فى اليونسكو بباريس فى أواخر يونية الماضى وضم جماعة من المفكرين بصفتهم الشخصية المستقلة عن أى تمثيل لبلاد أو جنسيات . وقد دعيت إلى هذا الاجتماع وألقيت فيه كلمة جاء فيها : « إن التحديات التى سوف تواجه البشرية سنة ٢٠٠٠ لـهى من الضخامة والتعقيد بحيث أجدنى فى غير موضع الاختصاص لمواجهتها بخبرة وتفصيل .. لذلك أكتفى بأن ألقى نظرة عابرة على واحدة من مشكلاتها التى تقلق بال الجميع فى وقتنا الحاضر » .

مشكلة الطاقة :

والخطورة فى مشكلة الطاقة تكمن فى أنها تهدد التقدم الإنسانى إذا لم يتم التوصل إلى إيجاد حل لها . ويبدو أن الإجماع يكاد ينعقد على أن الحل المباشر هو فى اكتشاف موارد جديدة للطاقة تجنبا لخطر الاعتماد على مورد واحد من الممكن أن ينضب . وهناك بالفعل خطوات قد بدئت لاستخدام الطاقة الشمسية والطاقة النووية وغير ذلك من الطاقات الناتجة عن التكنولوجيا الحديثة . وهنا التحدى الأكبر لسنة ٢٠٠٠ .

التكنولوجيا :

إن دفع التكنولوجيا إلى مداها البعيد سوف يقضى على مورد آخر .

للطاقة أهملناه فى حياتنا المعاصرة : هو مصدر الطاقة الناتجة عن عضلات الإنسان . فالإنسان الحديث قد أخذ يعتمد فى أبسط حاجاته على القوة الميكانيكية . حتى فى البلاد النامية نجد أن استهلاك الكهرباء يزداد بسرعة وسوف يتضاعف من الآن إلى نهاية هذا القرن . معنى هذا أن إنسان هذا العصر ، فى كل مكان ، فى الصحراء وفى الأرياف وفى المدن ينقص باستمرار معدل استخدامه لقواه الطبيعية . فإذا استفحل هذا « الكسل البشرى» إلى حد الاستغناء عن الطاقة البشرية والالتجاء كلية إلى الطاقة الآلية لتحل الآلة فى نهاية الأمر محل الإنسان فعلينا أن نتوقع ذلك الإعلان الرهيب أن « الإنسان قد مات » فى بداية القرن القادم ، على نحو ما أعلنه « نيتشه » فى القرن الماضى إن « الله قد مات » .. يجب إذن ، لكى ننقذ الإنسان من هذا المصير المخيف ، أن نعمل منذ اليوم بكل عناية ودراية على إيجاد نوع من « التعادلية » بين الطاقة البشرية والطاقة الميكانيكية .

التعادلية الإنسانية :

ينبغى أن نعمل على تكوين إنسان القرن القادم تكوينا جديدا يكفل له عدم الاعتماد على الآلة إلا فى الأعمال التى تعجز قواه الطبيعية عن أدائها .. وليس هذا لمجرد الاقتصاد وتوفير الطاقة الصناعية فقط ، بل إلى جانب ذلك للمحافظة أيضا على سلامة النوع البشرى بكل قدراته الجثمانية وفضائله الخلقية ، ودفاعا عن الإنسان الطبيعى ضد غزو الإنسان الآلى .. ذلك أن الطاقة صورة للحضارة . وأنه لأمر مرعب

أن نتصور أن حضارة القرن المقبل سوف تكون حضارة الإنسان الآلى ...

الإنسان حى والله موجود :

كلنا أمل أن تخفت صيحة الخطر : « الإنسان قد مات » ، وأن تعلو صيحة أخرى مطمئنة « الإنسان حى » على نحو ما خفتت صيحة « نيتشه » فى القرن الماضى وارتفعت صيحة أخرى لبعض المفكرين المعاصرين اليوم : « إن الله موجود » . وأكتفى بذكر كتاب واحد ظهر حديثا للمفكر : « أندريه فروسار » (بيع منه ملايين النسخ) « الله موجود لقد قابلته » .. وهنا مشكلة أخرى من مشكلات سنة ٢٠٠٠ يجب أن نتدبرها منذ الآن : الدين . ما هى العلاقة التى ستقوم بين الدين والعلم ؟

الدين والعلم :

إن الدين — هو القيمة التى اختص بها الإنسان وحده — هو الذى يجيب عن هذا السؤال الخالد على مدى القرون : « من الذى خلق الدنيا ؟ » ... هل يستطيع العلم الملحد فى القرن الماضى أن يصبح مؤمنا فى القرن القادم ؟ قد أفهم أن كلمة «الدين» وحتى كلمة «الله» عند رجال العلم قد يكون لها من المعنى والمدلول ما يختلف عما عند رجال الدين . ولكن السؤال يبقى دائما هو السؤال الخالد للبشرية . كل قرن وعصر يطرحه . وكل القرون والعصور القادمة سوف تطرحه بدورها.. حتى الكواكب البعيدة والمجرات السحيقة : « من الذى خلق

الكون ؟ » .. إذا سكت العلم تكلم الدين .. على كل حال يجب أن نضع فى قائمة المسائل المتعلقة بسنة ٢٠٠٠ مسألة العلم فى مواجهة الدين . وإنى لأود أن أسمع فى هذا الصدد رأى رجل العلم الكبير الحاضر معنا الآن : « ألفريد كاستلر » ..

رد العالم كاستلر فى الدين والعلم :

ورد عالم الفيزياء ألفريد كاستلر الحائز على جائزة نوبل عن أبحاثه فى المادة والضوء والمؤلف لكتاب علمى صدر أخيرا بعنوان « المادة ، هذا الشىء المجهول » ذكر فيه أن العلم كلما توغل فى دراسة المادة انتهى إلى أنه لا يعرف عنها شيئا ، وأن هناك شيئا فيها سوف يظل أبد الدهر مخفيا عنّا .. وقد حرص على أن يخط بيده باللغة الفرنسية جوابه على سؤالى . وهذا نصه بعد ترجمته : « طلب توفيق الحكيم رأيى فى العلاقات بين العلم والدين.. بين هذين النشاطين المعنويين للإنسان . ولا أعتقد أنه يوجد تناقض بينهما . فهما فى علاقة أحدهما بالآخر يعتبران متكاملين وليسا متعارضين ، فالعلم والدين كل منهما تتحدد طبيعته طبقا لخطة مختلفة فى مجال النشاط الإنسانى المعنوى . فالعلم مجاله المعرفة ، وميدانه دراسة الوقائع المتراكمة أمام حواسنا أما الدين فمجاله الإيمان . وفى كل الأزمان وجد ويوجد رجال العلم المؤمنون ، ورجال العلم غير المؤمنين ، وإنى أود أن أسمح لنفسى بنقد تعبير لتوفيق الحكيم وهو يتحدث عن العلم الملحد فى القرن الماضى . إذ يبدو لى من غير الممكن وصف العلم فى القرن التاسع عشر على هذه الصورة . فهذا القرن نحا إلى الاتجاه الفلسفى الذى أطلق

عليه « المادية العلمية » معتمدا على نتائج للعلم لم تكن بعد مكتملة ، مما جعل بعض العقول تستنتج منها عدم وجود الله. فوجود الله ، خالق هذه الدنيا ، لا يمكن إثباته كما لا يمكن نفيه بالعلم . فالعلم لا يوصف بأنه متدين ولا بأنه غير متدين . فرجل العلم يحاول تعليل الخليقة على أساس مبدأ « السببية » Causalité أما رجل الدين فهو يؤكد الوجود على أساس مبدأ الغائية » .

فهذان المبدآن « السبب » و « الغاية » . والبداية والنهاية كما استطاع الفكر الإنسانى أن يستوعبهما ، يتكاملان ولا يتعارضان .

« ألفريد كاستلر »

من تحديات سنة ٢٠٠٠

القنابل الذرية

من المسائل التى يهتم بها العالم اليوم ويحسب لخطورتها كل حساب ، مسألة الزيادة فى عدد مراكز الطاقة النووية فى عديد من الدول .. لأن هذه المراكز المنتجة للطاقة النافعة والضرورية ، هى أيضا معامل لصنع البلوتنيوم ، المادة الأولية للقنابل . وهنا يكمن الخطر الجسيم من تعدد هذه المراكز النووية .. غمن المتوقع أن تستطيع نحو عشرين دولة الحصول على قنابل ذرية قبل نهاية هذا القرن .. وقد نشرت قائمة بالبلاد التى فى إمكانها أن تمتلك سرا هذه القنابل .. وهى : إسرائيل ، وجنوب أفريقيا ، وتايوان .. كما أن البلاد التى يمكنها امتلاكها فى عام ١٩٨٠ هى : الأرجنتين ، والباكستان .. أما البلاد التى تستطيع امتلاكها حوالى عام ١٩٨٥ ، فهى : مصر وكوريا الجنوبية وإيران ، والبرازيل وتركيا ، ويوجوسلافيا .. كما أن هناك دولا فى استطاعتها إنتاجها فى أقل من عام واحد عند الحاجة ، وهى ألمانيا الغربية واليابان ، وكندا ، وإيطاليا ، والسويد .. وكذلك فى أقل من خمس سنوات ، مثل : أستراليا ، وسويسرا ، وبلجيكا ، والبلاد الواطئة .. كل هذا بالطبع خارج الدول الست الأعضاء فيما يسمى « النادى الذرى » ، وهى : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والصين ، والهند.

ووجه الخطر المروع فى هذا الانتشار لهذه القنبلة الذرية بين عديد من الدول ، ومنها الصغيرة غير المسئولة ، هو أن أى خلاف إقليمى ينشب بينها وبين جيرانها قد يغريها ويدفعها إلى حسم موقفها باستخدام سلاح القنبلة الذرية ، الذى تملكه.وقد يؤدى ذلك إلى حد التراشق بهذه القنابل الذرية بين دول لا ندرى عددها ، مما قد يحدث من التفجير والتدمير ما يهدد الجنس البشرى كله .. أمام هذا الرعب النووى ، تقدم اثنان من العلماء هما : ألفريد كاستلر الفرنسى ، وفلاديمير كيمونوف السوفيتى ، بمشروع لطلب مقدم إلى الرئيس الأمريكى كارتر ، والرئيس السوفيتى بريجنيف ، كى يستخدما نفوذهما فى الحث على ضرورة تطبيق المادة السادسة من معاهدة عدم انتشار القنبلة النووية ، الصادرة عام ١٩٧٠ .. وهى المعاهدة التى صادقت عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة .. على أن يقوم الرئيسان بهذه الخطوة فى أقرب وقت ، لأن مصير النوع الإنسانى يعتمد على ما سوف يتخذانه من قرار .. وقد وزعت علينا ، نحن الحاضرين فى اجتماع شهر يونية الماضى بهيئة اليونسكو فى باريس صور من هذا الطلب كى يوقع كل عضو على صورة خاصة به .. وقد وقع جميع الحاضرين ، وجمعت كل الصور الممضاة لترسل إلى الرئيسين على أنها من شخصيات علمية وثقافية ، لا تمثل إلا أنفسها .. وقد وقعت ، مثل الجميع ، على الصورة الخاصة بى ، غير أنى أضفت حاشية ذكرت فيها : إنى آمل أن تقرر عقوبة على الدول التى ترفض التصديق على هذه المعاهدة .. وأقل عقوبة تفرض هى استبعاد الدولة الرافضة من عضوية الأمم المتحدة .. ذلك أن هيئة الأمم المتحدة ليست سوى أسرة البشرية

كلها مجتمعة للحفاظ على سلامة البشر وأمنه ، وليس من المقبول أن يشذ عضو ويرفض ما فيه الأمن لأسرة الإنسان ..

معنى التقدم :

كذلك طرحت على مؤتمر التحديات فى سنة ٢٠٠٠ ، مسألة أخرى ، رأيت من الأهمية طرحها : تلك هي مسألة الكلمات غير المحددة المعنى .. فنحن نطلق من الكلمات ما يشبه القذائف العشوائية غير المحسوبة الأبعاد .. فإذا بلغت فى انطلاقها على هذا النحو سنة ٢٠٠٠ ، وما بعدها ، فلسنا ندرى على أى وجه سوف يؤخذ محمولها .. من هذه الكلمات كلمة « التقدم » ، التى كثر استعمالها اليوم ، حتى أصبحت كالعملة المتداولة فى كل سوق ، إلى حد انطماس أرقامها ، وغمض معالم مدلولها .. إنها فى حاجة إلى تحديد وتحليل وقبل كل شيء يجب أن نطرح على أنفسنا السؤال المحدد : « التقدم » بالنسبة إلى ماذا ؟.. وإلى أين ؟.. كلمة التقدم من الكلمات التى لا تنهض بذاتها .. فهى لابد أن تضاف إلى شيء أو إلى شخص .. يجب فى تحديد كلمة « التقدم »من معرفة المتقدم عليه .. هل هو زمان أو مكان أو حالة أو حيوان أو إنسان ؟.. وما هى المواصفات والدرجات التى تتخذ منها الموازين والمقاييس التى نحكم بها على أن هذا الشيء أو هذا الإنسان أو هذا المجتمع متقدم أو متأخر عن نظائره ؟.. وهل التقدم حركة فى خط مستقيم أو خط دائرى مثل حركة الكواكب والأفلاك ؟.. وهل تقدم الإنسانية مشابه لتحرك كوكبنا الأرضى فى مساره حول الشمس ؟.. وأن ساكن الأرض مثل كوكبه

تقدمه دوران .. وبذلك يوجد دائما ما نسميه : « العودة الأبدية » ؟..
كل هذا يدعونى إلى المطالبة بإعادة النظر فى المعنى والمدلول لكلمة: « التقدم » ، فلا تلقى بغير تحديد دقيق .. ففى العلم النظرى والتطبيقى مثلا يمكن الحكم بالتقدم فيما وصل إليه الطيران ، والخروج عن جاذبية الأرض ، وهو ما لم يكن معروفا فى أزمان سابقة ولكن فى العلم الوجدانى والروحى لا يمكن أن نجد مثل هذا المقياس للحكم .. فالتقدم فى العلم يجعل الخطوة الحاضرة فيه تلغى الخطوة الماضية .. فما جاء به أينشتين يمكن أن يلغى ما جاء به نيوتن .. ولكن التقدم فى الفن مثلا لا يمكن أن يسير على هذا النهج ، فما جا به بيكاسو لا يلغى ما جاء به رفاييل .. والموسيقى الجديدة لا تلغى الموسيقى القديمة،فإذا دخلنا عالم الروح القائم على الإيمان ، لا نجد التقدم ولا التأخر .. إنما نجد الوجود الدائم ..

معنى الاستقلال :

كذلك التعريفات والاصطلاحات التى استعملت وأطلقت فى وقت من الأوقات ، وكان لها من المعنى ما يلائم ظروفها .. غير أنها استقرت فى الأذهان بصورة معينة أوحت بكونها من الثوابت والمسلمات التى لا سبيل إلى مناقشتها ، فإذا بظروف جديدة فى عصر جديد يغير معناها مثل تعريف « الاستقلال الوطنى » .. فلقد فهم من هذا الاصطلاح أن كل وطن أو بلد يجب أن يحبس نفسه داخل مصالحه الخاصة وحدها ، دون أن يدخل فى حسابه المصالح المشتركة لكافة البشر .. أهى إلى هذا الحد صعوبة أو استحالة أن نتصور يوما تجتمع فيه كل حكومات الدول على اختلاف

أوطانها وأديانها وأجناسها ، كي تبحث مشكلات الإنسانية عامة ، كما لو كانت وطنا واحدا عاما ؟.. أليس لنا الحق فى أن يملأ قلوبنا هذا الأمل ، ويداعب أجفاننا هذا الحلم ؟.. أم أن المعنى الضيق لتعريف : الاستقلال الوطنى لبلد من البلاد هو المسئول ؟.. ولذلك فهو يحتاج إلى إعادة نظر وتفسير ...؟

فى رأيى أنه بغير هذه المراجعة الشاملة لكل معطيات حضارتنا المعاصرة من حيث المعانى والمواقف والمدلولات ، فإن من المرجح عندى أننا سوف نفاجأ فى سنة ٢٠٠٠ بتحديات أخرى غير متوقعة ولا منظورة ولا داخلة فى الحساب ...

صفحة من ذكرَيات ..

الحضارة والحوار

لست أدرى لماذا لم أكتب شيئا عن الفترة التى لحقت فترة اشتغالى فى سلك القضاء ؟.. لقد عملت بعد ذلك فى وظائف مختلفة ، لى فيها من الذكريات ما كاد يضيع ، وكاد العمر يضيع قبل أن أدون بعضها .. وها هى ذى صفحة منها تذكرنى بها الظروف .. لقد انتقلت من عملى بالريف إلى وظيفة فى وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم) . كان ذلك فى أوائل الثلاثينات — فى عام ١٩٣٣ بالتمام — أى منذ سبعة وأربعين عاما بالضبط . ولعل شبح الشقاء فى الأرياف ، والحياة المهملة فيها ، ظل يلازمنى بعد استقرارى فى القاهرة ، فنشرت مقالا ألفت فيه نظر الدولة إلى ضرورة الاهتمام بشئون الريف والمجتمع ، وخشيت أن تتعلل الدولة وقتئذ بعجز الميزانية عن إنشاء وزارة خاصة لمثل هذه الأمور ، فلجأت إلى التيسير واقترحت فى ذلك المقال إلحاق هذه المهام الجديدة بوزارة الأوقاف ، للانتفاع بمواردها فى هذه النواحى الإصلاحية ، على أن يطلق عليها اسم « وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية » ..

* * *

ومضت الأيام .. وتغيرت الحكومة .. وجاءت حكومة جديدة تلقفت الفكرة وتشجعت وأنشأت لها وزارة الشئون الاجتماعية » ..

ونص فى قرار إنشائها على أن تقسم إلى مصالح وإدارات منها : « مصلحة للفلاح والتعاون » ، و « مصلحة للعمل » ، و « إدارة للإرشاد » ، وهكذا ... وكنت فى ذلك الحين مديرا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، فنقلت بنفس درجتى مديرا لإدارة الإرشاد فى الوزارة المنشأة .

* * *

كان ذلك على ما أذكر فى شهر أكتوبر من عام ١٩٣٩ . وما كدت أتسلم الإدارة الجديدة حتى تكشفت لى حقيقة الوضع ، وبدأ الأمر كما توقعت .. الميزانية ضعيفة .. والوزارة الجديدة قد قامت فى الهواء بلا نقود .. وإذا نحن فيها جميعا منقولون بالانتداب ، وكل منا متروك لنفسه ، فى حيرة من أمره ، لا يدرى أين يجلس ، ولا كيف يعمل .. وكان اختصاص إدارتى على الورق ، كما جاء فى القرار ، يشبه اليوم أختصاص وزارة الإرشاد أو الإعلام أو الثقافة أو كلها مجتمعة .. فالمسرح والسينما والإذاعة والمعارض والموالد والفنون بأنواعها وهلم جرا ... كل ذلك يدخل فى إختصاصى .. ولكن المشكلة كيف أجمع وألملم هذه الأشياء ، وهى متفرقة فى وزارات مختلفة .. فالمسرح كان يتبع وزارة المعارف ، والسينما تتبع وزارة الداخلية ، والموالد وزارة الأوقاف ، والإذاعة مستقلة ، والمعارض والفنون تتبع هيئات أهلية وهكذا .. كيف أنشئ إدارتى الجديدة إذن من هذه الأشتات ؟.. سألت العون عند وزيرى فوجدته هو أيضا فى حيص بيص .. ولم يعين له أحد وكيلا للوزارة ، واكتفت الحكومة بتعيين سكرتير عام مؤقتا ، وهو الآخر لم يكن يعرف له

رأسا من قدم .. وانتهى بى الأمر إلى أن قررت الاعتماد على نفسى ، وذهبت أبحث عن اختصاصى فى كل فج عميق من فجاج الدواوين .. وكانت كل جهة من تلك الجهات تتبرم بطلبى .. ولما طال إلحاحى ، جعلت كل جهة من تلك الجهات تلقى إلى بأكوام من الملفات والدوسيهات والأضابير وهي تقول : « هذا هو اختصاصك ، تفضل استلمه » !.. فأجمع هذه الأكوام وأضعها فى عربة حنطور على نفقتى وأذهب بها إلى إدارتى .. لقد تحملنا كثيرا من العناء ، وتعرضنا إلى كثير من السخرية ، وأصبحنا موضع تندر من الناس والصحف ونحن نؤسس هذه الوزارة الحديثة التى لم يكن لها مثال نحتذيه فى تاريخنا ، ولا فى تاريخ أى بلد من البلاد التى نعرفها .. وأخيرا استقر بنا الأمر على وجه من الوجوه ، وبدأنا نتوسل ونستعطف ونتسول ، إلى أن وضعت لنا شبه ميزانية مستقلة .. وبدأنا نفكر فى أوجه النشاط الممكن .. وكان من ذلك أن رأينا إنشاء مجلة خاصة بالوزارة .. وكانت بالضرورة تتبع اختصاصى وإدارتى .. وهنا نشأت لى متاعب جديدة لم تكن فى الحسبان .. رأينا أن يكون لهذه المجلة رئيس تحرير يتفرغ لها من بين الموظفين الأدباء .. واستكتبنا لها الأقلام المشهورة فى كل اتجاه ومجال .. فكان يكتب فيها سلامة موسى بأفكاره الجريئة المتحررة ، كما كان يكتب فيها محمد الههياوى الأديب الإسلامى المعروف ببلاغة أسلوبه العربى وأفكاره المحافظة .. واعتدت فى كل صباح وأنا أتناول فنجان قهوتى ، أن أرى رئيس التحرير يدخل على ليطلعنى على سير الأمور ... وفى ذات يوم دخل واضعا يده على رأسه قائلا :

ـــ الصداع ... الصداع .. لم أعد أطيق ولا أحتمل ... لابد أن أقول لك ...

قلت له :

ـــ اهدأ وقل لى .. ما هو الموضوع ...؟

قال :

ـــ سلامة موسى ومحمد الههياوى ... أنا فى صداع دائم منهما ... أرجوك أنقذنى ... ابحث لى عن حل ...

قلت له :

ـــ ماذا جرى ؟.. اشرح لى الموضوع بدون انفعال ...

فهدأ قليلا وقال :

ـــ الموضوع باختصار أن كل يوم يأتى عندى محمد الههياوى يطعن فى سلامة موسى ، فإذا خرج دخل سلامة موسى يطعن فى محمد الههياوى .. وكل منهما يقسم لى أنه سيكف عن الكتابة إذا لم يمنع الآخر منها .. أى لابد أن نخرس أحدهما كى يكتب لنا الآخر ، وأن نستغنى عن واحد منهما ونستبقى الآخر بمفرده ... ماذا أفعل بين هذين الكاتبين المحترمين ؟... وماذا يكون الحل فى هذه المشكلة ؟!

فقلت له ميسرا :

ـــ أهذه مشكلة عويصة ؟!... أنا أحلها لك ... إذا جاء إليك أحدهما فأرسله إلى هنا ..

وانصرف ...

وفى اليوم التالى أرسل إلى حسب الاتفاق سلامة موسى .. فدخل

يبادرنى بقوله :

ــ اختاروا بينى وبينه ...

فتجاهلت وقلت :

ــ من تقصد ؟

قال :

ــ هذا المدعو محمد الهيهاوى .. أيعقل أن تستكتبوا فى مجلتكم التى تدعو إلى الإصلاح الاجتماعى ، هذا المتخلف البدائى ، صاحب العقل المغلق ، الذى يعيش بأفكار مضى عليها أكثر من ألف عام ...

قلت له بهدوء وابتسام :

ــ نحن نستكتبه من أجلك ...

فبدت عليه الدهشة وقال :

ــ من أجلى أنا ؟!

قلت :

ــ طبعا .. من أجل أن تقوم برسالتك على خير وجه .

فقال مستغربا :

ــ ما هذا الكلام ؟!

قلت له :

ــ ما هى رسالتك ؟.. أليست هى إمداد الهيهاوى وأمثاله بأفكارك الجديدة ؟.. ولكى نضمن اطلاعه على أفكارك يجب أن يكون موجودا هنا بجوارك .. وجوده ضرورى حتى تستطيع أنت أن تقوم بمهمتك .. ولو كانت كل العقول والأفكار مثل عقلك وفكرك فما هى الضرورة

لكتابتك ... أنت تكتب لأمثال الهياوى .. فأنت موجود لأنه هو موجود .. فدعه يعرض أفكاره القديمة ، وحاول أنت أن تصلحها بأفكارك الجديدة ..

فأطرق قليلاً وبدا عليه الاقتناع .. وقال بلهجة مترددة :

ـــ أتظن مثله يمكن أن يصلح ؟!

قلت له :

ـــ رسالتك هى إصلاح العقول ... وليس عليك أن ينصلح فلان أو لا ينصلح .

قال :

ـــ نحاول ...

وخرج .. وقد هدأت نفسه ...

وبعد يوم ، جاءنى محمد الهياوى يصيح :

ـــ هذه كبرى الكبائر وقمة المهازل والمباذل !.. تستكتبون فى مجلتكم الرسمية ، وفى بلاد إسلامية هذا الزنديق المتحلل المدعو سلامة موسى ؟... هذا كفر مبين ... والله ... والله... لن أكتب فيها حرفا بعد اليوم إذا تركتم هذا الشخص يكتب بجوارى ..

قلت له :

ـــ اجلس واهدأ قليلا .. واسمع رأيى .. أنت رجل حجة فى الدين ولك أسلوب عربى مبين ... وإذا لم تكن رسالتك هى إلقاء نور الإيمان فى صدور الزنادقة ، فلماذا تكتب إذن ؟.. نحن نستكتب سلامة موسى إلى جوارك حتى يستطيع نور إيمانك أن يصل إليه وينفذ إلى قلبه ...

ـــ أهذا قصدكم ...؟

قلت :

ـــ بدون شك ... وأنت خير من يعرف أن رسالات الرسل إنما قصد بها هداية الضالين ... ولو كان كل الناس مهتدين لما كان هناك لزوم لنزول الرسل والأنبياء ...

قال :

ـــ هذا صحيح .

قلت على الفور :

ـــ إذن يجب أن يكون إلى جوارك سلامة موسى كى تهديه ...

فقال وهو يهز رأسه :

ـــ والله هذا لن يهديه ألف نبى ..

قلت له !

ـــ أنت ما عليك إلا أن تكتب والهداية من عند الله ..

قال :

ـــ صدقت ... ولكنه يكابر ويجادل ..

قلت :

ـــ جادله أنت أيضا .. ولتكن المجادلة بالتى هى أحسن ... إن الإسلام ، كما تعلم ، يعترف بالجدل ولا ينفيه .. ولا يشترط إلا أن تجادلوا بالتى هى أحسن ، أى بغير عنف ولا فحش ...

قال مصادقا :

ـــ حقا .. تلك هى آداب المجادلة فى الإسلام ...

قلت له :

— هذا إذن دليل على أن المجتمع الإسلامى الحقيقى كان يعرف رحابة الصدر ، ولا يعرف الإرهاب والإكراه والخنق لآراء الآخرين ...

قال مسترسلا :

— هذا حق .. ولو أراد الله أن يجعل الناس أمة واحدة وفكرا واحدا لفعل ... ولكنه — سبحانه وتعالى — عدد الأمم ونوع الأفكار ...

قلت مضيفا :

— ومن تنوع الأفكار واختلاف الآراء واحتكاكها وتعانقها تتوالد الحقائق المضيئة ... وقد تجد عند سلامة موسى بعض ما ينفعك ويرضيك ، وقد يجد هو عندك بعض ما ينفعه ويرضيه ... فلا يوجد عند أحد الشر كله أو الخير كله ... فليحاول كل منكما أن يعرف ما عند الآخر ... أما الإصرار على الابتعاد عنه والجهل به فهو العمى ... ولا يصح لإنسان عاقل أن يفقأ عينيه بيديه حتى لا يرى ما عند الآخر ... ادرس ما عند الآخرين وتخير منه ما ينفعك ...

قال :

— وهل عند بلشفيكى ملحد مثل سلامة موسى نفع أو خير؟!(كلمة بلشفيكى وبلشفية كانت الشائعة وقتئذ أكثر من كلمة ماركسية أو شيوعية)

قلت له :

— ها أنت ذا تجهل ما كان يجب أن تعلمه ... إن سلامة موسى ليس ملحدا ، بل هو مسيحى مؤمن .. وقد أهدى إلى كتابا نفيسا مجلدا أحسن تجليد ... هذا الكتاب قد يدهشك أن تعلم أنه « الكتاب المقدس » ..

وكان يجب أن أهدى إليه بدورى نسخة فاخرة من القرآن الكريم ...

قال :

— عجيبة ...؟

قلت :

— أرأيت ؟.. إن الجهل بالآخرين آفة من الآفات .. ولعلك تعرف أن من خيرة المسيحيين من درس القرآن لينتفع ببلاغته ، ومن المسلمين من قرأ التوراة والأناجيل لينتفع بعبرها ، دون أن يكون فى ذلك مساس بعقيدة طرف من الأطراف ... يجب أن نفتح العقول لكل هواء ونور ولا نخشى شيئا .. فالصحة كل الصحة ، لا يمكن أن تكون بغلق النوافذ .. إن أول ما يقوله طبيب لمريض هو : افتح النافذة ليدخل لك الضوء والهواء ...

قال بعد إطراق :

— على كل حال ... نحاول ...

وانصرف ...

وجاءنى رئيس التحرير بعد أيام ، فبادرته بقولى :

— هل زال عنك الصداع ...؟

فقال باسما :

— زال والحمد لله ... كل واحد منهما يأتى حاملا مقاله فأستلمه منه ويمضى فى هدوء ... ماذا حدث ..؟

قلت له :

— حدث أن كل واحد منهما عرف حقه وحق غيره فى التعبير عن رأيه .. أنت أيضا عليك أن تعرف شيئا ...

— ما هو ؟

— هو أن تذكر كل من يكتب عندك أن يكون الجدل والحوار بين الجميع فى إطار الاحترام المتبادل ، بعيدا عن المهاترات ، مرتفعا عن التجريح الشخصى ، وإلا فقدت حرية الرأى والتعبير الكثير من قيمتها وجلالها .. أدب الحوار والجدل أن يكون ذلك بالتى هى أحسن ...

تحضرنى من صور الحوار والجدل كذلك ما كان يحدث أمامى فى جلسات المحاكم .. كنت ألاحظ ذلك المشهد العجيب : مشهد طرفين متناقضين تمام التناقض ، طرف يطلب رأس متهم ، وطرف يطالب ببراءته .. أيوجد تناقض أكثر من هذا ؟... ولكن الحوار والمساجلة والمجادلة بين الحجج والأدلة هى التى تشد اهتمام الجمهور الحاضر فى الجلسة ... جمهور يبدو عليه أنه يشارك بفكره ويزن بعقله وهو يصغى إلى شهود الإثبات وشهود النفى ، أى إلى الشىء وضده .. وكأنه يشعر فى قرارة نفسه بأن مداركه العقلية تتسع برؤية الأشياء من زواياها المتعددة ، إذ لا شىء يضيق الذهن غير رؤية الشىء من زاوية واحدة ...

* * *

لعل من أمتع الكتب وأنفع المطالعات التى أذكرها فى صباى ، ما كان للجاحظ فى « المحاسن والأضداد » .. كتاب علمنى رؤية الشىء وضده .. ولم يزل باقيا عندى حتى اليوم بجلدته القديمة ، وعليها بخطى وبالحبر القديم اسمى مع عبارة « سنة أولى فصل أول » ... من المدارس الثانوية بالطبع ... ولعل ملازمة هذا الكتاب لى طوال هذا الزمن ، إنما ليذكرنى دائما بدرسه الأول : إن لكل عملة وجهها الآخر ، وإن المعرفة

لا تتم إلا بالإحاطة بما نراه من الأشياء وما لا نراه ، ما نحبه منها وما نكرهه .. لأن مزاولة المعرفة الشاملة لمختلف جوانب الأشياء هى الطريق إلى العلم بمفهومه الحديث .. ولا عجب إذا رأينا العلم بهذا المفهوم قد عرفته ومارسته الحضارة الإسلامية فى ازدهارها الخلاق ، وقد وجدت فيها عقول فاحصة ، متحررة ، متحركة متفتحة على كل جوانب المعرفة ، مثل عقل إلى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى .. إن كتابه « المحاسن والأضداد » ، ما هو عندى فى حقيقة الأمر سوى نوع آخر من « الجدلية » جسدت ، ربما لأول مرة ، فى نطاق الصور الأدبية ... لكن تبقى به بعد ذلك مهمة أخرى هى أنه يغرس فى النفس الإدراك العميق بقيمة الجدل والحوار فى صنع التفكير الإنسانى فى مجتمع مؤهل لبناء حضارى .

* * *

هذه الذكريات خطرت لى بمناسبة المقابلة التى تمت مع السيد الرئيس ، وشعرت منها أن البناء الحضارى الذى فكر فيه يقوم على هذه الصورة من الوحدة الوطنية التى لا عزل فيها ولا انعزال للآراء فى إطار الحوار المثمر الخلاق على المستوى العف الرفيع ..

الطَعام لكل فم ..

قوة الشعوب

منذ نحو عشرين عاما ، أى فى سنة ١٩٥٧ ، نشرت كتابى « رحلة إلى الغد » ، وفيه تخيلت أن مجتمع المستقبل بعد ثلاثمائة سنة ، أى حوالى سنة ٢٣٠٠ ميلادية ، سوف يكون الغذاء كالماء .. ففى كل مسكن « حنفية » تصب الماء ، وإلى جوارها « حنفية » تصب اللبن .. وربما أخرى أيضا تصب الشاى أو القهوة ... حسب الطلب .... تخيلات ...!

ولكننا نعيش فى عصر تتمخض فيه الليالى عن كل عجيبة ، ويكاد الواقع فيه يسابق الخيال .. ومن حسن الحظ أن بعض تخيلاتى تنقلب أحيانا إلى تنبؤات ، وأن هذه التنبؤات منها ما يصبح حقائق .. إذن لا بأس عندى من التخيلات والتخريفات .. فمن يدرى ؟! .. لقد سبق أن تنبأت ونشرت فى الأربعينات كتابا قلت فيه بالنص : لابد لمصر من « ثورة مباركة » بهذا اللفظ .. وفى عهد الملكية .. فجاءت بالفعل ثورة سنة ١٩٥٢ ، وقيل عنها « الثورة المباركة » ، بهذا اللفظ ذاته !.. إذن لو تخيلت اليوم أو تنبأت بقيام « ثورة غذائية » فى مستقبل الأيام ، على النحو الذى ذكرته فى « رحلة إلى الغد » ، وأصبحت حنفيات الماء فى البيوت تجاورها حنفيات اللبن والشاى والقهوة بالمجان .. هل يكون خيالى قد

شطح وعقلى قد اختل ؟!... من يدرى ... ولكن . وآه من لكن !..
ليس تحقيق الأحلام يمضى قدما .. فإن العقبات والمعوقات تتربص بكل
تقدم فى الطريق .. فشوارع الأحلام مثل بعض الشوارع مملوءة بالحفر ..
وإذا تمكن العلم الحديث بالكشف والتكنولوجيا من توفير الطعام لكل
فم ، فإن الاقتصاد الحديث أيضا ليس نائما ولا غافلا .. فلقد ذكرت
كذلك فى كتابى أن الاحتكارات العالمية الرأسمالية سرعان ما تحتوى هذا
الطعام الرخيص وتضعه تحت سيطرتها وتبيع فيه وتشترى .. وعندئذ
يكون أمامها سلاحان : الأول أن تجهض بسطوتها المشروع كله .. وهذا
فى رأيى سلاح مفلول لأن قوة الشعوب الجائعة كفيلة بأن تجرف فى
طريقها هذا السلاح ... والثانى وهو الأذكى والأمكر ، هو أن تتولى هى
بنفسها إنتاج هذا الطعام الرخيص الذى يمسك الرمق ويسكت أفواه
الجائعين ، ولكن بطريقة تمكنها من الربح ... وذلك على غرار التعليم
المجانى الذى يمنح للكافة ، ولكن من خلفه الدروس الخصوصية باهظة
الثمن .. وكذلك الطب المجانى الذى يفتح بابه للجميع ولكن من باب
خلفى العيادة الخاصة لمن يدفع الأجر .. فالاحتكارات سوف تصنع
كذلك فى الطعام ما تصنعه فى السيارة الفورد القديمة الرخيصة ، ولكن إلى
جانبها تصنع الفورد الفاخرة التى تبهر الناظرين وتغرى المستهلكين .. كل
هذه أسلحة وعقبات تحصنت بها الاحتكارات .. تخيلت وتنبأت كذلك
فى كتابى بأنها قد أزيلت بقوة الشعوب .

هل المستقبل للذكاء أم للذاكرة ؟

يقال إن الإنسان العصرى قد لا يحتاج كثيرا إلى الذاكرة لأن الأجهزة الحديثة فى التسجيلات والمسجلات والحاسبات والإلكترونيات ستكون فى متناول يده وفى جيبه فى كل وقت . ويقال أيضا إن الإنسان سوف يحتاج إلى الذكاء الذى يمكنه من استخدام هذه الذاكرة الآلية فى الإبداع والابتكار.وعلى ذلك فقد يسمح فى امتحانات الغد باستعمال المراجع والقواميس والكتب التى تحوى المعلومات المحفوظة وفى هذه الحالة لن توضع الأسئلة على أساس الذاكرة والحفظ ولكن على أساس الذكاء وكيفية استخدام هذه الأجهزة فى الإجابات المبتكرة . فما هو رأى أصحاب الرأى فى ذلك ؟!

المفكرون وصورة المستقبل

قابلنى أستاذ فاضل ممن يعرفه الكثير من المثقفين بدراساته الرصينة وقال لى إنه فهم من مقال أخير لى فى موضوع « الحياد » أنه استبعاد للمفكرين المنظرين من حلبة الجدل والناقشة فى هذا الموضوع المهم الخطير الذى يتصل بمصير وطننا فى الحاضر والمستقبل . وإن هذا الاستبعاد لهذه الفئة المفكرة من الأمة قد يضيق من مجال الرؤية — ويحصر النظر فى نطاق زمنى محدود .. وكان ردى على هذا القول الصائب أن ليس إلى هذا ما قصدت . ولا أظن أحدا ممن يعرفنى يخطر بباله أنى ممن يرحبون أو ينصحون بأى استبعاد ... فأنا على العكس : مهمتى وواجبى الدعوة إلى توسيع مجال الرؤية والتفكير. ولقد رحبت وسعدت بكثير من المقالات المخالفة لى فى الرأى ... وإنى لمن المعجبين بكلمة رائعة للشاعر المفكر « بول فاليرى » هى : « فلنملأ أنفسنا ثراء بخلافاتنا المتبادلة » ..

فالخلاف فى الرأى ربما كان أكثر من الاتفاق فيه إثراء للعقل والنفس . ولكن أى خلاف ؟.. إنه ولا شك الخلاف المحترم العف فى أسلوبه الغنى بمادته .. إذن أى استبعاد لخلاف ليس مما تقبله طبيعتى ولا مما أرضاه لنفسى . ولكن لعلنى كنت شديدا فى لهجة مقالى المشار إليه وأنا أدعو الأستاذ فكرى أباظة للمشاركة فى الجدل باعتباره المطالب علنا بهذا الحياد فى حفلة رسمية ، وأردت التهوين عليه بأن لا تكون مشاركته بأسلوب

التفلسف النظرى الذى زاد كثيرا فى المناقشة ، فحجب القضية الأصلية فى بساطتها واتصالها بموضوع الساعة : وهو التضامن العربى ... وآفة المناقشة المشتدة حول أى شيء كآفة الرياح المشتدة فى أى طريق ، تثير الغبار وتجعل العين مسددة على موطئ القدم خشية العثار . والطريق هنا هو الحل العلمى لقضية حالة هى انقسام العرب ودخول الإرهاب بديلا للكلام . حتى خاف كتابنا على حياتهم .. كل هذا والمناقشات تتجه إلى البحث النظرى بعيدا عن الحل العلمى .. ولعل من أسباب ذلك كلمة « الحياد » نفسها . فهى ذات مدلولات فقهية لا يمكن ذكرها بغير الخوض فى الدراسات الطويلة .. ولكن هل يمكن أن يكون قصدى الحقيقى هو إغلاق باب هذه الدراسات والبحوث ؟ أو أنى أريد أن نبدأ الآن بالحلول العلمية ؟ أو أنى أريد على الأقل أن يسير الأمران معا جنبا إلى جنب ؟ مهما يكن من أمر فإنى أدرك بما لا يقبل شك قيمة التفكير النظرى فى إحداث الثورات أو التغييرات المطلوبة لأى وضع من أوضاع الدول والمجتمعات وما من تغيير إلا وقد سبقه تفكير ، ومن البحوث التى نشرت فى الصحف حول موضوع « الحياد » هذا ما يمكن أن يفيد فائدة كبرى فى التخطيط لصورة مستقبلية لوضع مصر والمنطقة العربية كلها.. وإذا رئى أن هذا التخطيط ضرورى من الآن ، وأن فتح موضوع « الحياد » هذا هو فرصة سانحة لفتح باب النظر الشامل والبحث الكامل فى صورة مصر والعرب حاضرا ومستقبلا ، فإن هذا ولا شك عمل مجيد لم يكن فى الحسبان على هذا النحو وليس لنا إلا أن نطالب به كما تطالب به مصر والبلاد العربية بامتنان وشكر ..

هل أعدت خطة لبناء عقلى وروحى جديد ؟

من أين يبدأ البناء العقلى والروحى كما يراه رجال الفكر .. ما هو تصور كتابنا ومفكرينا لمستقبل العقل المصرى ؟ وما الذى تستطيع أن تقدمه أجهزة الثقافة والإعلام والتعليم والأحزاب فى عملية البناء ؟

نقطة البداية عند الدكتور زكى نجيب محمود أن مشكلتنا فى طريقة التفكير .. وأن الأساس الأول لعملية البناء فى تغيير أساليب التفكير نفسها بما يناسب روح العصر، وعند الأستاذ أحمد بهاء الدين أن الحرية أفضل وسيلة للبناء العقلى وهى كفيلة بتفجير طاقات الخلق والإبداع ... وهذه هى الآراء .

هل أعدت خطة أو تخطيط للنمو العقلى والروحى للإنسان المصرى أسوة بالتخطيط الاقتصادى لنمو الثروة المادية فى الزراعة والصناعة والمعادن والسياحة ؟ ومن الذى يقوم بوضع هذه الخطة ورسم هذا التخطيط . هل هى وزارة التعليم أو وزارة الثقافة أو برامج الأحزاب أو كل هذه معا ؟ وما هى الملامح الرئيسية فى هذه الصورة التخطيطية للنمو العقلى والروحى للإنسان المصرى ؟ نحن نستطيع أن نخطط للرقعة الزراعية وللمستوى الصناعى وللثروة البترولية وللرواج التجارى والسياحى وغير ذلك من المجالات ولكن هل نستطيع أن نتصور وأن نحدد بالتقريب حالة المستوى العقلى والارتفاع الروحى وطرق تحقيقه للمستقبل ؟

إن القضية كلها مرتبطة ببعضها البعض لأننا نريد ذلك الإنسان الذى يستطيع النهوض بجدارة وكفاءة بأعباء العمل لتحقيق هذا التقدم الضخم فى التنمية المادية والرخاء للملايين المتزايدة من السكان ولكن هل أعددنا خطة لبناء هذا الإنسان ؟

هذه هى القضية .

حول ثقافة مصر

كثر التساؤل حول إلغاء وزارة الثقافة ومغزاه وتطبيقه ونتائجه . وهو موضوع متسع للمناقشة أفضل أن يطرح فى ندوة تجمع نخبة من المثقفين على هذه الصفحة . أما الذى أعرضه الآن هنا فهى ذكريات خاصة فى هذا الشأن . ففى العشرينات وفى الثلاثينات لم نكن نعرف أى اتصال للحكومة بأى أمر من أمور الثقافة ، فالمسابقات الأدبية كان الذى يمولها تبرعات الأفراد . وكذلك إنشاء الجامعة المصرية الأولى أى الأهلية والمجلات الأدبية والثقافية ، بل حتى جمع المخطوطات النادرة ونشر القواميس اللغوية ، كل ذلك كان يتسم بمجهودات بعيدة عن أى نشاط حكومى. إلى حد أن فكرت عندما كنت مديرا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف (التى تسمى اليوم وزارة التربية والتعليم) فى أن يكون للحكومة نوع من الاتصال الرسمى بالثقافة فقلت لوكيل الوزارة فى صيغة سؤال : وزارتنا تسمى وزارة المعارف فهل هذه المعرفة خاصة بما هو داخل جدران المدارس أم أن من الواجب أن تكون خارجها أيضا ؟ فلم يفهم السؤال ومغزاه فى أول الأمر وقال : ما هذا الكلام داخل الجدران وخارج الجدران ، إن عملنا هو فى المدارس فماذا تريد غير ذلك ؟ فقدمت له اقتراحا بإنشاء إدارة جديدة فى وزارة المعارف تسمى إدارة الثقافة لتتولى التثقيف العام للشعب خارج نطاق المدارس . كان ذلك فى الثلاثينات ،

وأنشئت بالفعل بعد ذلك وعين فيها طه حسين بعد إخراجه من الجامعة كما عين فيها أحمد أمين.وكنت أنا قد انتقلت إلى وزارة الشئون الاجتماعية عام ١٩٣٩ التى كنت قد أوحيت بإنشائها فى مقال قيل إنه سياسى وعوقبت عليه بخصم خمسة عشر يوما من مرتبى بعد أن خففت العقوبة التى كان مقررا لها الطرد من الحكومة . عينت فى إدارة جديدة بالوزارة الجديدة فى وظيفة مدير لإدارة الإرشاد تضم المسرح والسينما والراديو والموالد ونحو ذلك وحصلنا على سيارتين كبيرتين فيهما تسجيلات لنشر الدعوة الصحية والإرشادات الزراعية والثقافية كى تجوب القرى.كان الإشعاع الفكرى والإنتاج الأدبى والفنى والاهتمام الثقافى فى العشرينات والثلاثينات فى يد الناس والمجتمع .. وكانت وزارة الثقافة الحقيقية هى « المثقفين » أنفسهم . وكانت النهضة الفكرية والإبداعية التى قامت فى العشرينات والثلاثينات — وهى الأساس لما جاء بعدها — من صنع أهل الفكر والفن والثقافة. وليست من صنع الموظفين،ولذلك كنا نشعر بمسئوليات كبيرة تقع على عاتقنا معشر المثقفين فى ذلك العهد . ولم يخطر ببالنا قط أن نلقى بهذه المسئوليات على كاهل الحكومات أو أن ننتظر منها شيئا سوى أن تترك لنا الحرية الضرورية للتعبير ولإنعاش الفكر ونمو الإبداع . واليوم ونحن نتهيأ بعد السلام لوثبة جديدة نحو نهضة ثقافية كبرى جديرة بالعهد الجديد كيف يكون الحال ؟إن مصر اليوم لم تعد مثل مصر الثلاثينات حيث مكنت القيادات الثقافية من عملية وأدبية وفنية — دون سند من حكومة أو بحسن اختيار لها — من القيام بأعباء النهضة ونشر الإشعاع الفكرى الحضارى فى المجتمع الخارج من ثورة ١٩١٩ ... إن

مجتمعنا اليوم قد تولت قيادته الثقافية الأجهزة الفعالة المتسربة فى كل بيت وكل جيل من الترانزستور والكاسيت والمرئيات الملونة وغير الملونة مما ليس له فى الأغلب علاقة بثقافة ولا يخضع لأى تخطيط فعال يرمى إلى أحداث نهضة حقيقية ... فهل إذا مكنت القيادة الفكرية وأحسن اختيارها للقيام بأعباء النهضة الثقافية ، وأتيح لها النفاذ الفعال إلى الأجهزة الإعلامية لإحداث النهضة المنتظرة يمكن أن يدعونا ذلك إلى التفاؤل بالمستقبل ؟ هذا ما سوف تكشف عنه الأيام ...

دعونا نتعلم كيف نفكر

ليس مصادفة أن يقوم فى ألمانيا فلاسفة مثل كانت وهيجيل وماركس وعلماء مثل أينشتين وماكس بلانك وموسيقيون مثل بيتهوفن وفاجنر ، كل منهم فى مجال أبرز سماته عمق الفكر ... فالصلة بين الفلسفة والعلم والموسيقى الرفيعة أمر معروف ... الفلسفة الألمانية والموسيقى الألمانية هى خير ما أنتج فى ألمانيا ... وجامعات ألمانيا القديمة فى القرون الوسطى قامت نهضتها الفكرية فيما قامت على فلاسفة العرب من أمثال ابن رشد وابن سينا والفارابى ...

بينما نحن فى العصور الحديثة بعد هذا الزمن الطويل من القرون الوسطى لا يعرف تلاميذنا نماذج من تفكير فلاسفتنا العظام الذين كانوا من بين الأسس التى ساهمت وقام عليها صرح هذا المجد الفكرى والفنى الألمانى والعلمى .

وليس معنى التفكير إهمال التحصيل . فالتحصيل هو المادة التى يجب أن تجمع وتحفظ لتكون بعد ذلك موضع التفكير فتفكير بلا تحصيل مثل طاحونة بلا مطحون . فجهاز التفكير هو طاحونة والطاحونة العاطلة لعدم وجود المحصول الذى تطحنه لا فائدة منها . كذلك الطاحونة الخربة أو المعطلة التى تضع فيها المحصول فلا تتحرك لطحنه وتتركه كما هو فإنها لا نفع فيها أيضا . كذلك حشو الطاحونة وإتخامها بمحصول زائد يسد

تروسها ويعطل حركتها فإن ذلك أيضا يعرقل النفع والفائدة .

تعطيل طاحونة التفكير والاجتهاد حدث فى بلادنا بفعل الغزو الأجنبى . لقد كان الأزهر عندنا دارا للحكمة . وكانت طاحونة الفكر تعمل باستمرار وتخرج العلماء الراسخين فى علوم الفلك والمنطق والرياضيات والتفسير إلى جانب الحفظ والتحصيل . فوجد الغزاة الخطر فى الأزهر المفكر لأنه ينتج العلماء والمفكرين والزعماء وقادة الشعوب الذين يحركون فى الناس الفكر الحر وينشرون النور . وهذا خطر على الطغاة المحتلين . وظلو بالأزهر حتى قضوا على ما فيه من ابتكار وتفكير واجتهاد وتفسير ، وحبسوه فى نطاق الحفظ ولا شىء غير الحفظ. نحن ندعو قبل كل شىء إلى دراسة الموضوع دراسة جدية شاملة فى المجالس المتخصصة مع مشاركة الرأى العام المستنير فى هذه القضية الخطيرة . ثم مراجعة برامج الدراسة الثانوية على الأخص . لإعادة تركيب وتحريك الطاحونة المفكرة الخربة المعطلة . وذلك بإجراء التعادل الدقيق بين مواد الحفظ ومواد الفكر . وأن يراجع نظام الامتحانات فيجعل قسم من الامتحان فى طريقة الفكر الشخصى والتناول والمعالجة وذلك بأن توضع الأسئلة ومعها فى حجرة الامتحان الكتب والمراجع فى متناول الطالب أو أن تكون ورقة الأسئلة ذاتها « حاوية » للمعلومات لينتفع بها الطالب وأن تكون الإجابة الجيدة ليست على ما فى الكتب أو ورقة الأسئلة ذاتها من معلومات ولكن على مدى التفسير والتفكير حول هذه المعلومات الموجودة فعلا أمام الطالب لمعرفة كيف استطاع الطالب أن يظهر أسلوبه الشخصى فى التفكير والمناقشة والتفكير والتناول للقضايا التى تطرحها

الأسئلة . بمعنى آخر أن يكون الامتحان قسمين : قسم نطلب فيه من الطالب المعلومات التى حصلها وحفظها . وقسم نعطيه نحن المعلومات ونطلب منه تفكيره الشخصى حولها . وكل هذا يستوجب الحل الجذرى وهو تعديل أساليب وبرامج التعليم . أما اللغة العربية وتعليمها هى الأساس فلا ينبغى أن يترك اختيار النصوص والمواد لمدرسى اللغة وحدهم لأن الموضوع أكبر وأوسع وأعمق من مجال تخصصهم العادى . بل أن يكون للمجالس المتخصصة فى فروع العلم المختلفة رأى فى كل ذلك . وهذا الموضوع الخطير يجب على كل حال أن يطرح للمناقشة العامة على الرأى العام كله .

فى المفكر وطريقة التفكير

من الكلمات التى يطلقها بعض الكتاب بغير تحديد كلمة فكر وتفكير ومفكر ... ولذلك حسب هذا البعض أن كل من كتب فى موضوعات سياسية أو اقتصادية أو فلسفية بلغة رزينة أو أسلوب محشو بالتعريفات أو الإحصاءات أو مرصع بالعبارات التى توحى للقارئ البسيط بعمق الكاتب وسعة اطلاعه وشمول ثقافته فيضفى عليه لقب المفكر . مع أن عمله هو أنه ناقل جيد ذكى لفكر الآخرين بالترجمة أو التلخيص أو العرض .

وقد يكون هذا صحيحا لو كان المقصود بالمفكر هنا هو المشتغل بشئون فكرية ، فيقال إنه من رجال الفكر ، كما يقال عن المشتغل بشئون المال إنه من رجال المال أو الأعمال ، وكما يقال عن المشتغل بشئون الدين إنه من رجال الدين . وهكذا ... أما المفكر الذى يلم بكل أوجه النشاط الفكرى الإنسانى ويخرج من ذلك بتفكيره الخاص المميز ، الذى لا يمكن رده إلى فلسفة بعينها فهو المفكر بالطبيعة ، سواء كان تفكيره داخل منهج أو خارجه .. وهنا يختلط على البعض التفريق بين المفكر المنهجى والفيلسوف .. فالمفكر المنهجى غير الفيلسوف . لأن الفيلسوف لابد أن يكون منشئا لنظرية فلسفية تقوم بالضرورة على منهج فكرى .. ويظهر الفرق جليا بين رجلين على مذهب واحد : فمثلا كارل ماركس فيلسوف فى عرف المبادئ الفلسفية التى كنا ندرسها فى أوائل العشرينيات بفرنسا حيث كان برنامج الدكتوراه يبدأ من أرسطو إلى ماركس . لأنه المنشئ لنظرية مكتملة فى

بناء شامخ محدد الأركان ، فى حين أن « لينين » بمؤلفاته من « المادية ونقد الإمبريالية » إلى « الدولة والثورة » لا يصنف على أنه فيلسوف ، بل على أنه من أهم المفكرين والمنظرين للماركسية .. كذلك يجب أن التمييز بين المضمون والأسلوب فى المنهج الفلسفى . فعند فيلسوف مثل نيتشه نجد أن مضمون فلسفته القائم على الطاقة الحيوية كمنبع للأخلاق وأن الإنسان يجب أن يغير نفسه ليصبح « السوبر مان » عن طريق « إرادة القوة » وأساسها « الفردية » .. هذه الفلسفة وضعها فى أسلوب شاعرى يخطف الذهن والخيال ببريق ساطع .. فى حين أن « سارتر » الذى يصنف على أنه فيلسوف وكاتب روائى ومسرحى يفرق تماما بين أسلوبه فى كتابة مضمون فلسفى مثل « الوجود أو الكينونة والعدم » حيث الأسلوب جاف شاق ، وأسلوب رواياته ومسرحياته السهل الشيق ... والأمر على هذا النحو فى تراثنا العربى . فاللغة العربية الواحدة تتخذ أسلوبين مختلفين تبعا للمضمون فهى جافة عسيرة عند فيلسوف مثل « ابن رشد » قرأتها بمشقة فى كتابه : « الكشف عن مناهج الأدلة » وقت ما كنت أبحث فى طريقة التفكير عند فلاسفتنا العرب ، وهى نفس المشقة التى صادفتنى عند مطالعة « الإلهيات » لابن سينا ... ولكن هذه اللغة نفسها تنقلب حية بالصور الإنسانية والاجتماعية عند كاتب فنان مثل « الجاحظ » .. ولكن ما هو « المنهج » الذى تتكلم عنه فى التفكير ؟ عند الفيلسوف هذا واضح . وعند الجامعى الذى يمارس إعداد الرسائل الجامعية واضح أيضا .. ولكن عند مفكر كالعقاد لم يكن فيلسوفا ولا جامعيا هل كان له منهج ؟ وكيف كان منهجه .. ربما أمكن معرفة ذلك من مقارنة دراسته

عن « ابن الرومى » بدراسة جامعى كطه حسين عن « أبى العلاء » .. وأعتقد أن خير من يحكم فى هذا صديق العقاد والأرسخ منه قدما فى أرض الفكر المنهجى والفلسفى الدكتور زكى نجيب محمود .. على أن من الممكن أن يكون المقصود من كلمة « المنهج » هو كالمقصود من كلمة « مفكر » تطلق بغير تحديد .. وتؤخذ على أنه طبيعة التفكير والسلوك فى ممارسة الحياة . وبهذا يمكن تصنيف العقاد على أنه ينتمى إلى « الفردية » النيتشوية وليس إلى الجماعية « الماركسية » . فهو يعيش وحيدا بلا زوجة ولا أولاد ، وهو معتمد بنفسه مؤمن برأيه وتفوقه .. ولذلك هو فى كتاباته وخاصة « العبقريات » يتخذ موقف المحامى عن موكليه بثبات وعناد ، وليس موقف القاضى الذى يبحث عن الحق أينما كان ، ويتشكك ويتنقل بين رأى الاتهام ورأى الدفاع بحثا عن الحقيقة فى ذاتها .. والمحامى العنيد يريح زبائنه كما يريح المفكر المنهجى نقاده ، لأنهم يعرفون خط سيره من أول الأمر حتى النهاية . أما القاضى فمتعب ومحير ، لأنه فى بحثه الطليق عن الحق والحقيقة لا يعرف أحد أين سينتهى به الطريق ، فربما يأتى فى آخر لحظة شاهد أو دليل يغير اتجاه رأيه ، وكذلك المفكر الحر يتعب نقاده لأنهم لا يعرفون مقدما أين يقف بحثه غير الموجه بخط ثابت .. فمن يقرأ لكاتب حر مثل « أندريه جيد » كتابته قبل زيارته للإتحاد السوفييتى مثلا يجدها مغايرة لما كتبه بعد الزيارة .. ولذلك يتعين معرفة أساليب التفكير قبل مواجهة المفكر .. وكل أسلوب له مزاياه ومساوئه .. مثل طبائع

الإنسان ... فهناك من يفضل الفكر الثابت على فكر ومنهج . وهناك من يرى فى الثبات أن الحقيقة عندئذ ستكون مجمدة فى قوالب من حديد .. وهناك من يرى العكس .. والمهم هو أن لا نفصل صفة « المفكر » وتفكيره على فئة بالذات .. فكل المراكب مفيدة فى بحر الحقيقة الواسع ..

الفرق بين تقديم السمكة : وصيد السمكة

يجب نقل التعليم من مرحلة الحفظ إلى مرحلة الفكر . لأن الحفظ معناه نقل الشيء كما هو وتخزينه واستعماله كما هو . وهذا ما يجعلنا دائما ناقلين لما فكر فيه غيرنا ونتجه بدون أن نفكر نحن ونخلق ونتتج ، وبداية هذا عندنا هو التعليم الذى يقوم على الحفظ وليس على الفكر وعلى النقل وليس على الخلق . نحفظ النصوص ونتقبل المخترعات عن غيرنا ولا نعرف كيف نفكر . لأن الخلق لابد من أن يسبقه فكر . إذن لابد من ثورة تعليمية شاملة . تبدأ من اللغة وتعليم اللغة .

* * *

هذه الثورة التعليمية التى تنقلنا من الحفظ إلى الفكر هى التى تنقل حضارتنا من حضارة استهلاكية لمنتجات الحضارة الإنتاجية التى يقوم بها غيرنا .

قال المثل الصينى المعروف : بدل أن تعطى أحد سمكة علمه كيف يصطاد السمك . لأن بإعطائك السمك سيجعله دائما محتاجا إليك . أما تعليمه كيف يصطاد هو وينتج السمك فهو الذى يحرره دائما من مد اليد إلى الغير ، كذلك الحال إذا كان التعليم هو إعطاء تفكير الغير فقط . أما إذا كان التعليم هو أن المتعلم يصطاد بنفسه الفكر وينتج التفكير فإنه يصبح

منتجا ويدخل فى نطاق الحضارة المنتجة وليس الحضارة المستهلكة .

* * *

التفكير فى أبسط صورة مثل طعام تجهزه بنفسك بأن تفحص مواده وتنقيها وتحللها وتنسقها وتنضجها . وهو على نقيض الطعام المحفوظ فى العلب الذى تزدرده جاهزا . ولذلك عندما تنعدم فى فرد أو شعب قدرة التفكير فإنه يزدرد الأفكار الجاهزة التى يقدمها له الغير دون تفكير أو تحليل وهى مرتبة بدائية فى الإنسان تكاد تقترب به من الحيوان الذى يلتهم الطعام الذى يقدم له أو يصادفه دون أن ينقيه أو ينظر فيه . وكذلك فإن التعليم عندنا عن طريق النصوص المحفوظة دون تعريضها للتحليل والمناقشة والنقد والمراجعة هو أيضا من أسباب تأخير التدريب على تحريك العقل والفكر عند الطالب .

عرفت أستاذا فى التعليم الثانوى منذ ستين عاما . كان فلتة من الفلتات وكان عائدا لتوه من الخارج كان يقول : لا تأخذوا دروسى وأفكارى على أنها آراء منزلة صائبة دائما . بل عليكم أن تناقشوها وتفندوها وقد أكون مخطئا . وأكون سعيدا وناجحا إذا جئتم بأفكار مقنعة تخالفنى . لأن المهم ليس حشو رؤوسكم بمعلومات ستطير غدا . ولكن الأهم هو أن تحللوا أفكارى وتتقدموا بأفكار من عندكم تؤيدها أو تناقضها . المهم دائما هو أن يتحرك فكركم مع فكرى وعقلكم مع عقلى .. وهذا التحريك للعقل والفكر هو القيمة الباقية والكسب الدائم . أما المعلومات فسأدلكم على المصادر والمراجع التى أستقى منها لتراجعونى بأنفسكم وإلى الكتب والمراجع التى تخالفنى لتنظروا فيها كذلك .

مدينة العلماء

أثلج صدرى خبر نشر فى الصحف عن مدينة للعلماء تقرر إنشاؤها فى ليبيا تضم أحدث الأجهزة العلمية فى العالم وسرعان ما انفتحت أمام خيالى رؤية متألقة . ماذا يحدث لو تطلع عالم الحضارة اليوم إلى ليبيا العربية فوجد فيها أعظم ما ينفع الإنسانية : أكبر مستشفى فى العالم يجمع أشهر الأطباء والعلماء العالميين فى فرع من فروع البحوث المتقدمة وتجرى فيه التجارب وتولد الاكتشافات . كذلك لو تطلعت الدنيا فوجدت فى بلد عربى أهم معهد أبحاث لاستخراج الطعام من بروتينات البحار للقضاء على الجوع الجاثم على صدر الأرض . إن إنفاق الملايين فى هذا السبيل سيجعل اسم هذا البلد العربى على كل لسان ، وسيجعل اسم العرب وكلمة عربى لها من الرنين الجميل فى العالم المتحضر ما يمحو أوصاف الهمجية التى يسعى أعداء العرب الآن جاهدين فى إلصاقها بالنفوس وترسيخها فى الأذهان . سيعود عندئذ اسم « الحضارة » مقترنا فى أروبا باسم العرب كما كان فى أيام الرشيد والمأمون .

ولن يقتصر هذا الفضل على المجال الإنسانى العام ، بل سيكون له أكبر الأثر فى المجال القومى الخاص ، فإن إنشاء هذه البيئة العلمية العالمية فى أرض عربية سيمهد لأبناء الوطن العربى كله من طلاب وعلماء أيسر الطرق للتعليم والتدريب والنشاط العلمى إلى جوار الجهابذة العالميين .

ومع ذلك فإن الملايين التى ستنفق فى هذا السبيل قد تعود بأضعافها من حصيلة الوافدين على هذه المدينة العلمية العالمية من طلاب وعلماء وزوار وسائحين، وكما كانت مدينة الإسكندرية منار علم تشع على الدنيا فى مرحلة من مراحل التاريخ ستكون هذه المدينة فى ليبيا أو غيرها مركز إشعاع على البحر الأبيض وأوربا والعالم على مدى أجيال . إنها لخدمة جليلة للعروبة ومجد للعرب أرجو أن تتحقق فى ليبيا أو فى أى بلد عربى يملك القدرة .

عودة الشباب

سئلت أثناء وجودى الأخير فى باريس هذا السؤال : إذا أردت أن تكتب اليوم من جديد « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » و « أهل الكهف » .. كيف تكتبها ؟

سؤال يبدو كتلك الأسئلة السطحية التى تلقى علينا من حين إلى حين لمجرد التسلية أو التفكهة ، ولذلك لم آخذه كثيرا على سبيل الجد .. ولكن عندما خلوت إلى نفسى وأمعنت النظر فى السؤال وحاولت الإجابة وجدت تفكيرى قد طرق أبوابا وتخطى أعتابا ودخل فى دهاليز طويلة من أزمنة وعهود . وذلك شأن الأسئلة التى تبدو بسيطة بديهية فإذا عرضناها على التفكير والتحليل ظهرت أغوارها البعيدة . مثل السؤال عن : ما هو الماء وما هو الهواء ؟.. فالإجابة الدقيقة عن المسائل الأدبية ومؤلفاتها تقتضى أيضا التحليل العلمى أى الموضوعى للظروف التى نشأت فيها . والتحليل العلمى يستند دائما على كلمة واحدة هى « لماذا » أى السبب ويستبعد كلمة « يجب » أى الرغبة . فعندما نلاحظ مثلا أن قلب الإنسان علميا فى الجانب الأيسر فإن الكلام يكون علميا موضوعيا إذا قلنا « لماذا » هو كذلك . وهو يكون بعيدا عن الأسلوب العلمى إذا قلنا « نرغب » أو نَوَد لو كان فى الجانب الأيمن . وهذا أمر صحيح بديهيا فى مجال « العلم » الباحث عن الحقيقة . أما فى مجال الأدب والفن ، فإن

الخلط لم يزل موجودا ولذلك لابد من التفريق الواضح بين الناقد والباحث . فالناقد وخاصة إذا كان النقد صحفيا أى موقوتا بزمان محدد ومكان معين له أن يقول أرغب وأود وأفضل ، أى نلجأ إلى أسلوب شخصى أو توجيهى أما الباحث وخاصة إذا كان البحث موقوتا بالحاضر المباشر أى بأشياء وأعمال استقرت فى التاريخ الأدبى أو الفنى أو الاجتماعى فإن أسلوب الرغبة أو التفضيل أو التوجيه أى الأسلوب الشخصى يصبح لا محل له ولا مبرر ، ولابد عندئذ من استخدام أنماط الأسلوب العلمى الموضوعى التحليلى . أى لماذا ؟.. كان الأمر كذلك ؟..

* * *

وهذا التفريق بين الأسلوبين والمهتمين يجب أن يكون واضحا فى أذهاننا عندما نواجه القضايا الأدبية والفنية والاجتماعية . من أجل هذا كانت الإجابة الدقيقة الجادة عن ذلك السؤال المتعلق بمؤلفاتى القديمة والتى نشرت منذ أكثر من أربعين عاما تقتضى منى استخدام الأسلوب الموضوعى التحليلى أى السؤال بكلمة « لماذا » ؟ لماذا كان الأمر كذلك ؟ ولماذا كتبت هذه المؤلفات أصلا ؟

* * *

ثم لماذا كتبت على هذا النهج ؟ وكما هو الحال فى دراسة القلب مثلا ووجوده فى الجانب الأيسر فإن علينا أن ندرس أسباب هذا الوجود أولا وضروراته ومهمته ونشأته واتصاله ببقية الأعضاء والأجزاء . فإذا صنفنا العمل الأدبى على أنه رواية أو مسرحية فمن واجبنا إذن أن نحلل الظروف التاريخية والأدبية والاجتماعية التى اقتضت ظهور هذا العمل فى ذلك

الزمان والمكان ، بصفته التى ظهر بها . ذلك أن الأدب أو الفن إذا كان صادقا فلابد أن يكون وجوده بالصفة التى ظهر بها مرتبطا بضروريات التطور الحضارى للبيئة التى وجد فيها .. فما هو التطور الحضارى الذى كان قائما عند ظهور تلك المؤلفات القديمة ؟..

يجب إذن أن نحلل حالة مصر فى عشرينيات هذا القرن . وهذا عمل يطول شرحه.ويحتاج إلى دأب وتخصص وتفرغ ، ومكانه فى رسائل الجامعات ودراسات أساتذتها وبحوث المؤلفين والنقاد الجادين . ولكن يكفى هنا أن أشير إشارة سريعة إلى ما علق بذاكرتى فى هذا المجال .

فمصر فى عشرينيات هذا القرن كانت خارجة من ثورة ١٩١٩ . وقد جاءت هذه الثورة على إثر مطالبتها المحتل البريطانى باستقلالها . ذلك أن مصر كانت تابعة اسميا للدولة العثمانية ، وإن كانت عمليا خاضعة للاحتلال البريطانى فلما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانحازت الدولة العثمانية إلى جانب أعداء بريطانيا ، وكان حاكم مصر الخديوى عباس الثانى قد ذهب إلى اسطنبول للاستجمام وإظهار الولاء للباب العالى العثمانى ، كما كانت العادة فى ذلك العهد ، فقد اعتبرته السلطات البريطانية المحتلة منحازا هو أيضا إلى أعدائها ، وقامت بوضع مصر كلها تحت حماية بريطانيا العظمى رسميا طالما الحرب قائمة وانتهت الحرب فى أواخر عام ١٩١٨ فكان من الطبيعى أن تسأل مصر عن مصير الحماية البريطانية وعن وضعها السياسى ، بعد هزيمة الدولة العثمانية فى هذه الحرب واستفسرت بريطانيا عن معنى السؤال وعما تريده مصر بعد رفع الحماية البريطانية ، هل تريد العودة إلى التبعية العثمانية ؟ وهنا أعلنت مصر صراحة عن أمنيتها

ورغبتها فى عدم تبعيتها لأحد ولا لجهة . إنما هى تطلب الاستقلال التام . فلما رفضت بريطانيا ثارت مصر ثورتها ، وحاول المحتلون والخصوم إقامة العراقيل المعروفة بزعمهم أن فى مصر طوائف وأقليات دينية تقتضى الحماية ، ولكن مصر أثبتت بالفعل وحدة مصر المتينة ، وأن مصر هى كلها مصر ، ولا يوجد فى مصر غير كتلة واحدة هم المصريون الذين لم يعرفوا فى تاريخهم الطويل أى تفريق أو تمزيق بسبب اختلاف فى الدين، وعانق الهلال الصليب فى راية واحدة مرفوعة فى وجه المحتلين . وذهل المحتل البريطانى ولكنه جعل يشكك متجاهلا متسائلا :

* * *

وما هى شخصية مصر وهذا الشعب الذى يسمى بالمصريين ؟.. وعندئذ كان على الفكر والأدب والفن فى مصر الإجابة عن هذا السؤال .. وأخذ كل فى مجاله البحث عن كيان مصر والتنقيب فى جذورها والكشف عن شخصيتها ، فظهرت المحاولات العديدة فى الفن والأدب والفكر والسياسة والاقتصاد لتجلية الشخصية المصرية المستقلة وإبراز معالمها وملامحها . وأخص بالذكر هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ما كان منها متصلا اتصالا مباشرا بالإدارة المتعمدة المباشرة لربط مصر بجذورها القديمة .

* * *

مثل تمثال « نهضة مصر » لمختار ، ولحن سيد درويش ، أنا المصرى كريم العنصرين بنيت المجد بين الأهرامين ، وعودة الروح مصدرة بعبارة من « كتاب الموتى » لمصر القديمة انهض انهض يا أوزوريس أنا ابنك

حوريس جئت أعيد إليك الحياة » الخ الخ .

* * *

وقد فهم البعض خطأ أنها دعوة إلى الفرعونية ولم يكن الأمر كذلك مطلقا . إنما كان المقصود هو نفض التراب عن الشخصية المصرية لإظهار ملامحها المميزة وكيانها المستقل فى وقت ينكر فيه الخصوم والمحتلون حقها فى الاستقلال .. وشخصية مصر أو غيرها من البلاد والشعوب والأمم تمثل شخصية الفرد الواحد . فمعرفة شخصية فرد تقتضى تتبع مراحل عمره منذ وجوده على الأرض . فمن يزعم أنه يستطيع أن يعيش بشخصية كاملة التكوين يحذف مرحلة من مراحل وجوده وتاريخه بإلغائها من ذاكرته ، فإن هذا الفرد فاقد الذاكرة والوعى لجزء من تاريخ وجوده يُعتبر فى نظر الطب مريضا عقليا .. كان إذن شغلنا الشاغل فى ذلك العهد هو إبراز شخصية مصر المتكاملة بذاتها فى وقت كان الأعداء فيه والمحتلون ينكرون هذه الشخصية إلى حد كان تمثيل مصر السياسى أمام العالم يقوم به عنا سفير إنجليزى ، ولم نتخلص من هذا الوضع الظالم إلا بعد ثورتنا عام ١٩١٩ وإرغامنا المحتل أن يعترف بشخصية مصر فأنشئت عندئذ السفارات المصرية مستقلة عن تلك السفارات البريطانية .. إذن كان من الضرورى والطبيعى أن يكون الفكر والأدب والفن فى هذه المرحلة وهذه الظروف مرددا ومؤكدا للشخصية المصرية بطريق مباشر أو غير مباشر ..

ولكن كان من نتيجة هذا الغوص والتنقيب عن جذور الشخصية المصرية والاهتمام بماضينا ونفض التراب عن أصوله أن فهم خطأ أيضا أن

المقصود هو بعث الماضى بأكفانه ليعيش بيننا كما كان فى سالف الأزمان .. وظهر بيننا السلفيون والرجعيون الذين يريدون العودة بعجلة الحياة إلى الوراء . وهنا كان من الطبيعى والضرورى أن ينشأ فى الأدب والفن فى تلك الظروف عمل مثل أهل الكهف يمثل أهل الماضى وقد بعثوا فى مجتمع جديد ليعيشوا فيه بأفكارهم القديمة ومشاعرهم السالفة فلم يجدوا مكانهم فى هذا المجتمع الذى اعتبرهم أشباحا ولم يقبلهم كمعاصرين معايشين بل كتراث تنظر إليه باحترام وتبجيل دون أن يُسمح له بأن يتدخل فى حياتهم بنظرته ومثله القديمة فيعرقل إنطلاقة الحياة وتطورها .. إذن لم يكن اختيار قصة أهل الكهف بالذات من بين قصص القرآن اختيارا عفويا غير ملتزم وإلا كانت قصة يوسف مثلا أكثر إمتاعا ، ولكن الاختيار هنا لأهل الكهف كان اختيارا طبيعيا عضويا ومرتبطا بقضية مجتمع فى حالة تجديد فكرى وتطور حضارى .

ثم دخلنا فى أواخر الثلاثينيات وقد تبلورت شخصية مصر واستقرت فى الأذهان ، كما ظهر بوضوح اتجاه التجديد الفكرى والتطور الحضارى عندنا بالنظر الجاد المدروس فى تراثنا القديم واستخلاص كنوزه الخالدة ، وعرضها فى الأثواب الملائمة للعصور الحديثة ، على ضوء مناهج البحث الجديدة ، واستلهام روح التراث وجوهره لتجسيده فى قوالب معاصرة .

وعندئذ ظهرت قضية أخرى هى قضية الشرق العربى كله وحضارته الأصلية فى مواجهة الحضارة الأوروبية السائدة ، فكان من الطبيعى والضرورى كذلك أن ينشأ فى الأدب والفن الروائى فى ذلك الوقت عمل مثل « عصفور من الشرق » يطرح القضية من وجهة نظر الشرق فى

مواجهته لحضارة أوروبا . ولم تكن هذه أول مرة تحدث فيها هذه المواجهة ، فقد سبق أن حدثت فى القرن الماضى لرفاعة الطهطاوى . مع هذا الفارق وهو أن رفاعة الطهطاوى واجه الحضارة الأوروبية ، ومصر لم تكن قد استيقظت تماما ولم يكن الوعى لشخصيتها قد تبلور تماما ، وكذلك الشرق العربى كله بينما كانت أوروبا فى ذلك القرن التاسع عشر فى أوج عزتها وسلطانها الحضارى الذى لم تشبه بعد شائبة شك . أما « عصفور من الشرق » فقد ظهرت ومصر قد بلورت شخصيتها وعرفت اتجاهها الحضارى ، بينما أوروبا وقد خرجت من الحرب العالمية الأولى جريحة مضعضعة ، بدأت تشك فى مستقبل حضارتها كما ظهر فى كتابات الكثير من مفكريها .. وكانت هذه هى القضية المطروحة وقتئذ أمام الشرق العربى : « ما دام الأمر كذلك فى الغرب نفسه فماذا نأخذ منه وماذا ندع ؟.. » وكان على رواية « عصفور من الشرق » عرض القضية لا فى صورة محاسن أو مساوئ بغير حدود لكل من الحضارتين الشرقية والغربية ، ولكن فى صورة المحاسن والأضداد لكل منها بروح العدل والإنصاف ، لا بروح المحاباة المغمقة أو التحامل المرير على قدر الإمكان ، إذا كان أيضا على الأدب والفن فى ذلك الوقت رفع الروح المعنوية لمصر الشارعة فى النهوض « وعودة الروح » إليها ، وللشرق العربى وحضارته المتخاذلة أمام الحضارة الأوروبية الساحقة ..

* * *

والآن نعود إلى السؤال المطروح : إذا أردت أن تكتب من جديد « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » و « أهل الكهف » كيف

تكتبها ؟

* * *

لعل الصعوبات تبدو الآن واضحة بعد أن عرفنا تلك الخلفيات والأرضيات التى نبتت فيها تلك الأعمال . ذلك أن عبارة السؤال « تكتب اليوم من جديد » معناها البحث أولا عن الأرضية الجديدة هذا من حيث « المضمون » . ولكن عبارة « كيف تكتبها » تحمل أيضا معنى البحث فى « الشكل » .. وكما أن المضمون له خلفية وأرضية ، كذلك الشكل . فأصالته هو أيضا تأتى من تطوره المرتبط بتاريخ النوع وبيئته الأدبية والفنية ومن طبيعة الأديب والفنان ، ومن جو بلاده صافيا كان أو غائما ومن جغرافيته جبليا كان أو سهلا ، صحراويا كان أو مكتنفا بالغابات .. ولقد كنت فى باريس يوم ولدت السوريالية وظهرت المذاهب الروائية الجديدة التى تتسم بالتعقيد أو بالأغراب ، كما أضنانى التفكير والبحث عن أسلوب لى ، وانتهى بى الأمر إلى أن الأسلوب فى الفن مثله فى المشى . ومن تكلف أسلوبا خاصا فى مشيته تعثر ، ومن ترك نفسه على طبيعته سار . ولذلك لم ألتفت إلى المذاهب والأساليب عندما شرعت فى الكتابة ، وأمسكت بالقلم وتركت طبيعتى تقودنى ... هذه الطبيعة التى تمتد جذورها فى الأرض والبيئة والتاريخ والجو ونحو ذلك من المكونات لوجودنا ، دون أن أتعمد تذكر كل ذلك ساعة الكتابة وإلا انحرفت إلى التكلف . يجب أن أمشى مشيتى الطبيعية وكفى إلا أن أذكر وأضعه فى حسابى وتخطيطى ساعة المشى ، وإلا أصبح المشى كله عملية متصنعة تدعو إلى السخرية .. إذن لو كتبت تلك الأعمال القديمة من

جديد اليوم فإنى أعتقد من حيث « الشكل » أنى لن أغير هذا المنهج : وهو ترك طبيعتى تقود قلمى .. وليس معنى هذا إنكار التطور أو التجديد ، فالطبيعة نفسها تطور دائم وتجديد مستمر .. حتى فى وظائف الأعضاء وخلايا الجسم .. وطبيعتى الخاصة بالذات تبغض الجمود وتحب التجديد .. ولكن هناك فرقا كبيرا بين التطور الطبيعى وتكلف التطور ، وبين التجديد الذى تحتمه ضروريات تاريخية واجتماعية وفنية وبين التجديد الذى تدفعه نزعات مظهرية وتظاهرية ..

من حيث « الشكل » إذن لا توجد بالنسبة لى مشكلة . أما من حيث « المضمون » فسوف أجد نفسى أمام مشكلات معقدة . فالأرضية هنا اليوم ليست ثابتة . فنحن فى أوائل القرن كنا أمام قضايا واضحة . ليست لمصر وحدها ولا للشرق العربى وحده ، ولكن للعالم كله . ومنذ نصف قرن أى بعد ثورة ١٩١٩ أصبحت هذه القضايا فيما يخص بلادنا أكثر وضوحا ، فأمكن للأدب والفن رؤيتها وحصرها .

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد تزلزلت الأرض تحت أقدام العالم كله . واهتزت قلائع العقائد والمبادئ ووضعت فى ميدان المنازعات المسلمات الرواسخ وتغيرت جغرافية الأمم والشعوب وعدلت الخرائط وظفرت بالاستقلال والحرية السياسية شعوب لبثت تحت نير القهر والاستعباد طيلة قرون واتضح أن الاستقلال السياسى ليس هو الاستقلال الاقتصادى الذى لم تظفر به . وظهر أن الاستقلال الاقتصادى ليس مطلبا للشعوب فقط بل هو أيضا للقارات . ورأينا قارة مثل أوروبا التى كنا نعتبرها سيدة العالم أصبحت تخشى على استقلالها الاقتصادى وربما أيضا

السياسي من عملاقين هائلين عن يمين وعن يسار . كما اتضح أن التقدم العلمي الذي أدى إلى انقسام الذرة التي كانت في المفهوم العام جوهرا فردا غير قابل للانقسام قد أدى إلى انقسام في كل ما كنا نعتقد أنه جوهر فرد في مجال القيم الإنسانية والاجتماعية والسياسية .. فمثلا « الحرية » و «الديمقراطية» لم يصبح لهما مفهوم واحد : كما كان الحال فيما مضى حيث كان يكفي أن تذكر كلمة « الحرية » ليفهم الجميع المقصود ، لأن « الحرية » كانت قيمة إنسانية لها كيان واحد . أما اليوم فهذه القيمة انقسمت إلى كيانين . فالحرية في المجتمع الرأسمالي هي حرية الفرد في الحركة والتعبير والعمل . وهي في المجتمع الشيوعي حرية البروليتاريا في أن لا تستعبدها طبقة أخرى . وكذلك « الديمقراطية » انقسمت إلى ديمقراطيتين ... ديمقراطية تقبل وجود المعارضة كأساس في نظام حكمها ، وديمقراطية ليس في نظامها هذا الأساس باعتبار أنها قائمة على طبقة واحدة هي الشعب كله ، وأن المعارضة لا تكون إلا في المجتمع الطبقي .. ولم يقف الأمر اليوم عند هذا الحد من انقسام جوهر القيمة التي كانت واحدة . بل إن المعاني والمواقف التي كانت في الماضي ثابتة أو بطيئة الحركة أصبحت الآن في عالم الصواريخ والطائرات النفاثة سريعة التحرك والتغير .. فالولايات المتحدة التي حاربت النازية تتغير وتتحول إلى مناصرة الأنظمة الشبيهة بالنازية (في أمريكا الجنوبية مثلا) . ولقد جاء في كتاب حديث الظهور لكاتب سياسي اسمه « دانييل كوستيل » أن الأمريكان يفضلون معسكرا نازيا منظما على معسكر الديمقراطيين الألمان » .. كما ظهر كتاب حديث للعالم السوفيتي « أندريا ساخاروف »

أبو القنبلة الهيدروجينية بعنوان « بلادى والعالم » ذكر فيه أن العامل فى أى دولة متقدمة فى البلاد الرأسمالية يرفض أن يعمل بالأجر الذى يتقاضاه العامل السوفيتى ، لأن متوسط الأجر الشهرى لهذا العامل السوفيتى هو ٦٠ روبلا إلى ١١٠ روبل ، والحد الأدنى من حيث القدرة الشرائية يعادل ٣٠ دولارا فى حين أن متوسط هذا الأجر للعامل الأمريكى هو من ٦٠٠ دولار إلى ٨٠٠ دولار ، مما يتيح له مستوى عاليا فى المعيشة وكان الرد على ذلك إدانة هذا المجتمع ووصفه بأنه « مجتمع الاستهلاك » أى مجتمع مادى يهبط بقيمة « الإنسان » . واتجه المجتمع السوفيتى إلى الجانب المعنوى والذهنى ففتحت أبواب الفنون الراقية للشعب كغذاء رئيسى إلى حد أصبحت فيه محطات المترو تحت الأرض شبيهة بالمتاحف تعرض فيها لوحات من الفن الرفيع ، وكأن قيمة الإنسان قد وزنت بغير الميزان المادى ، وكأن الشعار أصبح الآن هناك : « ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان » .. أترى الشيوعية التى قامت على المادية تتحول إلى القيم الروحية ؟.. بل إن التغير والتحول فى الاتحاد السوفيتى قد شمل أيضا إجازة المؤلفات التى كان يعتبرها منذ ثلاثين سنة من الأعمال البورجوازية الممنوعة ، فقد نشرت الوكالة السوفيتية لحقوق التأليف قائمة المترجمات الأجنبية التى طبعت ونشرت فى الاتحاد السوفيتى بكميات كبيرة جاء فيها أن ما يقرب من مليون نسخة قد بيعت من قصة الفرسان الثلاثة « لاسكندر دوماس » كما أن كتب « فرنسواز ساجان » من بين المطبوعات الرائجة فى الاتحاد السوفيتى اليوم .

كل هذه التحولات والتغيرات السريعة التى تحدث فى المواقف

والمبادئ والأفكار فى وقتنا الحاضر تجعل من الصعب ملاحقتها واعتناقها ، إذ ما تكاد القدم تقف على أرض حتى تتحرك هذه الأرض من تحت القدم وتتخذ موضعا آخر ، تبعا لحركات الفعل ورد الفعل التى تزاولها القوى العظمى المسيطرة على عالم اليوم الذى أصبح كرقعة شطرنج واسعة المدى . ولم يصبح أمام الإنسان سوى أن تختار جانبا من الجوانب ويترك نفسه تتحرك بحركته . فإذا أردت كما جاء فى السؤال أن أكتب اليوم من جديدة «عودة الروح» فكيف أكتبها وبأى مضمون ؟ إن هذا يدعونى إلى أن أسائل نفسى أولا : عودة الروح لمن ؟ وأى روح أقصد ؟ لقد كان معنى الروح عندنا فى العشرينيات هو رفع روح مصر كما ذكرت وتجلية شخصيتها وتقوية معنوياتها لتكافح فى سبيل استقلالها . وقد تم لمصر ذلك . وإذا أخذت بأقوال جيل الشباب الذى قرأها وذكر تأثيرها فيه وخاصة عندما تسلم ذلك الجيل مصائر مصره فإن « عودة الروح » قد أدت مهمتها بخيرها وشرها . وكذلك الحال بالنسبة إلى « عصفور من الشرق » لابد إذن من مضمون جديد لمثل هذه الأعمال التى لا تقاس على أساس قيمتها الأدبية والفنية وحدها ، بل أيضا وهو الأهم على أساس أثرها وتأثيرها فى مجتمعها ومساره ومصيره ، أو على أساس النتائج التى ترتبت على ظهورها كما هو الحال فى « يوميات نائب فى الأرياف » وعلاقتها بإنشاء وزارة الشئون الاجتماعية فى ذلك العهد بمصلحة خاصة للفلاح .. وهو مضمون لم يزل حيا بارزا فى كثير من أعمال الأجيال الأدبية اللاحقة ولن يستنفد أغراضه أبدا .. كذلك مضمون « أهل الكهف » لم يزل

حيا ، ليس بالأعمال الأدبية ، ولكن بالمجتمع نفسه الذى تظهر كثيرا فيه قوى السلفية والرجعية أشد مما كانت وتحتاج إلى كفاح جديد .. وعلى أن الأعمال الأدبية المؤثرة فى المجتمع لم يعد من اليسير صدورها عن الكاتب الفرد كما كان الحال فى العشرينيات والثلاثينيات ، فقد تكونت الجماعات والتكتلات والمذاهب والأرضيات التى ينتمى إليها ويقف عليها الكتاب فى سبيل الأهداف التى يؤيدونها أو يخاصمونها ، فإذا كانت كتابات الكاتب متجهة إلى تقدمية أو رجعية فإنه يجد نفسه فى الحال تحت راية انتماء تبرزه وتقويه وتمده بالأسلحة الفكرية المعدة إعدادا مقنعا ، وبذلك تصنف أعمال الكاتب تصنيفا مذهبيا ، ويصبح التأثير فى المجتمع تأثيرا جماعيا ..

ولنعد إلى السؤال : كيف أكتب اليوم من جديد تلك الأعمال التى كتبت فى العشرينيات ونشرت فى أوائل الثلاثينيات ؟ إن الإجابة قد اقتضت كما رأينا دراسة المجتمعين المجتمع الماضى والمجتمع الحاضر .. ولكن السؤال لم يوضح لى حالتى الشخصية عند إعادة الكتابة من جديد لتلك الأعمال ؟ هل أقوم بذلك وأنا على حالتى اليوم من الشيخوخة ؟ أو على افتراض أنى عدت إلى الشباب شباب المجتمع الحاضر فى هذا العالم المعاصر ؟ إذا كانت الإجابة أن أبقى شيخا كما أنا الآن فما وجدوى ذلك ؟ ولماذا لا يقوم شاب بذلك ؟ وما قيمة الشيوخ إذن فى البشر كما فى النبات إذا لم يلقوا فى الأرض بذورا تنتج أشجارا نضرة تتحمل مسئولية الصالح لزمانها ؟ أما إذا كان المطلوب أن أعود افتراضا إلى الشباب فإنى أقول

لكم : ومن أدراكم لو عدت شابا أن أعود إلى حمل القلم ؟ لماذا لا تفترضون أنى إن ظفرت بالشباب لا أنتهز الفرصة هذه المرة وأعيش حياة « الصرمحة » ؟؟؟ عوضا عن « الصرامة » .... صرامة الفكر المتعبة المجهدة ... ستقولون لى على أن تحتفظ بطبعك الذى ولدت به .. آه لعنة الله على هذا الطبع .. إذن سأسلك نفس الطريق وأحمل القلم ومتاعبه فى عالم جديد غريب غير مفهوم بعد هو العالم المنفتح على القرن الحادى والعشرين .

حياتنا .. ماذا بعد موتنا ؟

هل يقدر لنا أن نرى أحباءنا مرة أخرى بعد موتهم ؟.. كان أوليفر لودج العالم الفيزيائى المعروف منذ القرن الماضى بأبحاثه فى الضوء والكهرباء والإلكترونيات والرياضيات التطبيقية والفلسفة الطبيعية قد انتهى فى أواخر حياته إلى الاعتقاد الراسخ فى إمكان الاتصال بالموتى ، فنشر فى هذا الموضوع مؤلفات منها « بقاء الإنسان بعد الموت » و « الحياة والموت » . ثم اتجه إلى المصالحة بين العلم والدين .. وكان لهذا الاتجاه الذى نقله من مجال البحث إلى مجال الروح والدين مما جعل بعض زملائه من العلماء يبتعدون عن أخذ هذا الاتجاه مأخذ الجد واعتبروا ذلك نابعا من عاطفة حزنه الشديد على وفاة ابنه .. فطبيعة الإنسان بما ركب فيه من قوة فريدة فى الذاكرة وإدراك عميق لأبعاد الشخصية البشرية وتقدير مدروس لأعجوبة الإنسان فى هذا الوجود ، كل هذا يدفع الإنسان إلى رفض صورة فنائه وزواله النهائى من سجل الموجودات لمجرد فناء جسمه المادى . فهو منذ استوى على أرض الوعى الذاتى وهو يؤمن بأنه ما خلق بكل هذه الجواهر الثمينة فى طبيعته إلا ليبقى وتبقى معه طبيعته المعجزة فى حياة ممتدة إلى أبعد من حياة تركيبه المادى الواهن .. ولكن العلم المادى منذ انتفض قائما كالمارد أخذ يقلقنا .. وأنا بنوع خاص عقلانى المنحى بحكم الطبع المتأصل يستهوينى العلم وأميل إلى تصديقه .. ولكنه يوقعنى فى

الحيرة عندما أراه صامتا أمام الروح.. وقد ألتمس له العذر عندما أتذكر قدراته إنها قدرات فائقة بالفعل ، غير أنها قائمة على إدراك الأشياء بالحواس المادية .

ومهما يتعمق العالم فى عمله فإن اكتشافاته على علو قيمتها وسمو غايتها وقوة دفعها لتقدم الإنسانية إنما تتم بالفحص والفهم عن طريق ما تدركه وتمارسه حواسنا ، ولا شيء غير حواسنا ، هذه الحواس التى تقرر لنا الموجود وغير الموجود .. وماذا تكون حواسنا الضعيفة القاصرة فى هذا الكون الهائل غير المتناهى ؟! هذه الحواس التى تعجز عن إدراك ما خرج عن نطاقها المحدود .. لذلك لجأ الإنسان إلى شيء يستطيع أن يجيب له عن الأسئلة التى ليس لها جواب عند العلم : إنه الدين .. ولكن أهل العقل يطمعون فى أن يسمعوا رأى العلم فى الدين ، وأن يربطوا بين العلم والدين . ولقد أُتيح لى أن أجتمع بعالم كبير فى مؤتمر ثقافى فى فرنسا : هو « ألفريد كاستلر » عالم الفيزياء الحائز على جائزة نوبل عن بحوثه فى المادة ، ومؤلف كتاب عنوانه « المادة هذا المجهول » . وهو مثل « إينشتين » من العلماء المؤمنين . وقد سألته إحدى الصحف الكبرى عن « المادة » وقد قطع فى أبحاثه شوطا أبعد مما وصل إليه إينشتين ، لأنه انطلق فى مساره بعد المرحلة التى وقف عندها سلفه العظيم ... أجاب كاستلر : « إننا كلما أوغلنا فى دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئا . فهناك دائما وسوف يكون دائما وإلى الأبد ما هو مخفى عنا » .. فسألوه : مخفى بماذا ؟ بمن ؟.. فقال : « بالنظام الكونى .. بالله ..ربما » هذا نص ما لفظه كاستلر . وكلمة « الله » على لسان عالم إنما تلفظ دائما بتحفظ . لأنه يخشى أن يسأل بعد ذلك عمن هو الله ؟!. وهو بكل علمه ، وبكل علم

البشر أجمعين لا يستطيع مخلوق على كوكبنا أو أى كوكب آخر ، ولن يستطيع أن يصف الله .. ولعل خير إجابة هى ما وردت فى القرآن : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .. ومع ذلك سألته عن رأيه فى العلاقة بين العلم والدين . فقال : إن العلم ينتمى إلى منطقة المعرفة التى تفسر الكون على أساس مبدأ « السببية » ، فى حين أن الدين يعتمد فى إدراك الكون على مبدأ « الغاية » .. وهذان المبدآن يكمل أحدهما الآخر ولا يعارضه . وبذلك يرى كاستلر أنه لا تعارض بين العلم والدين . فالتوفيق إذن بين العلم والدين قائم دائما عن طريق الاتفاق بينهما على الهدف . فهما لا يختلفان فى كونهما طريقين لإصلاح البشرية وتقدم الإنسان . ولكن لكل منهما طريقه الخاص . والخطأ فى التوفيق بينهما إنما يأتى من مطالبة الاثنين بالسير فى نفس الطريق واستخدام نفس الطريقة . فالطريقان مختلفان . والغاية واحدة .. طريق العلم تمتد فيه قضبان حديدية تسير عليها قاطرة العقل البشرى ، وتظل هذه القاطرة تسير حتى تجد أمامها سدا منيعا من بحار لا نهاية لها وجبال لا نفاذ خلالها فتقف القاطرة العقلية عاجزة .. أما طريق الدين فليس فيه قضبان ولا قاطرة .. إنما هو نور يملأ النفس ويشعرها بالوصول فى حضرة الله دون أن تراه . وهذه المرتبة من الإيمان ليست فى الشعائر التى قد يظن البسطاء أنها هى كل الدين .. فما الشعائر إلا وسائل يتوسل بها العاديون من المؤمنين لتهيئة نفوسهم وإصلاحها كى تسلك السبيل الذى يؤهلها للاقتراب من أشعة النور الإلـهى . ولذلك فإن التركيز على الشعائر وحدها كما لو كانت هى كل الدين كالتركيز على السلاليم أو السلالم دون الاهتمام الأعمق والأقوى بالطابق العلوى حيث

النور الإلـهى الذى من أجله صنعت السلالم التى يرتقى عليها للوصول .. فالطابق الأعلى إذن هو جوهر الدين . إنه إدراك النور بالشعور . وبالعقول الكبيرة أيضا لأولئك العلماء الكبار الذين ذكرهم الله بقوله :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ . والخشية هنا هى التقدير والإجلال، وليست مجرد الخوف من البطش والغضب .. هؤلاء العلماء الذين قدروا الله حق قدره ، عندما توغلوا فى الكشف عن أسرار خلقه فتبين لهم فى نهاية المطاف أنهم وأرضهم ليسوا أكثر من ذرة رمل على شواطئ بلا حدود ، وأن خالق الشواطئ والبحار والجبال والسماوات والنجوم والمجرات والأكوان لهو من العظمة بحيث لا يمكن أبدا لذرة رمل مثلهم أن يقتربوا من سره إلا بشعاع من نوره يتفضل به عليهم .. وهنا يجدون أنفسهم قد دخلوا منطقة الدين عن طريق عجزهم البشرى .. وكما جاء فى كتاب « درء تعارض العقل والنقل » لابن تيمية « إن الرسل .. يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته » .. وهذا هو طوق النجاة فى بحر اليأس العميق.اليأس الذى يغرقنى عندما يكاد العقل يقنعنى بأنه لا سبيل لبقاء الروح بعد فناء الجسد ، مفسرا لى كياننا البشرى تفسيرا علميا بأنه مجرد آلة كالآلة الحاسبة ، يعيش بذاكرة تملأ بالأحداث على مدى عمره كما تملأ شرائط الكمبيوتر ، وإنه يتحرك بدوافع كهربية مغناطيسية تغذيها دورة دموية ، وإن الذاكرة والروح والحركة إن هى إلا مجرد نشاط عضلى آلى قد يصل التقدم التكنولوجى يوما إلى أن يصنع مثيلا للإنسان البشرى .. يا له من تصور علمى مخيف !.. ويا له من شقاء أليم أن نعلم أن أحباءنا الذين ماتوا ليسوا أكثر من آلة تحطمت وصدئت وألقيت فى حفرة العدم

النهائى.. لا رجعة لها ولا قيامة . وكما قال بولس الرسول فى إحدى رسائله فى صدد القيامة ، فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس إصحاح ١٥ :
« إن كان الأموات لا يقومون فنحن شقى جميع الناس فلنأكل ونشرب لأننا غدا نموت . ولكن يقول قائل كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون ، الذى نزرعه لا يحيا إن لم يمت .. بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقى ولكن الله يعطيها جسما كما أراد ولكل واحد من البذور جسمه .. وهكذا أيضا قيامة الأموات يزرع (الإنسان) فى فساد ويقام فى عدم فساد ، يزرع فى هوان ويقام فى مجد، يزرع فى ضعف ويقام فى قوة، يزرع جسما حيوانيا ويقام جسما روحيا .. »

إذا قلت لنا أيها العقل البشرى ويا أيها العلم الوضعى إن اجتماعنا مرة أخرى مع عزيزنا الذى مات هو أمر مستحيل عقلا فإن كلمتك لن تكون الأخيرة ، ولن تدفعنا إلى القنوط .. فإن فى قدرة الله وتقديره ما يتجاوز أى فكر لأى كائن مهما يبلغ عقله وعلمه فى أى جرم من أجرام الكون اللانهائى ..

تهنئة للديمقراطية

إن قرار الموافقة على تأسيس حزب الوفد الجديد قد أحدث فى الشعب هزة فرح واستبشار . لأن الشعب المصرى بفطرته الواعية النابعة من إدراك سليم صقلته خبرة تاريخ قديم وتجارب آلاف السنين قد عرف أن شيئا جديدا قد حدث.إنه عودة الروح إلى حياة نيابية ولدت من ثورة شعبية قامت منذ أكثر من خمسين عاما على الرغم من سلطان ملكى واحتلال بريطانى .. وكانت إرادة الشعب هى التى تقرر ، واختياره هو الذى يحقق ، وصوته هو الذى يعلو على كل صوت . إلى أن تدخلت بعد ذلك أصوات التشويش التى أخفت صوت الشعب فلم يعد أحد يتبين نبرته الحقيقية . إلى أن صدر القرار بالموافقة على تأسيس حزب تمتد جذوره إلى ذلك المنبع الأول لإرادة الشعب ، عندئذ تفاءلت البلاد، وأيقنت أن الديمقراطية الكاملة بكل أركانها سوف تصبح حقيقة واقعة ، وأن الرئيس السادات عندما وعد بالتصحيح إنما كان يعنى ما يقول ، وإنه وقد بر بوعده سوف يكون هو السياج الذى يحمى شجرة الديمقراطية من العواصف المخربةحتى تؤتى ثمارها الطيبة ..فعلى الحزب الجديد أن يعمل على دعم هذه الديمقراطية بإرساء تقاليدها السليمة بالمعايشة النزيهة مع الأحزاب الأخرى فلا يخاصمها فيما هو حق ولا يهادنها فيما هو باطل . وأن يدرس مشكلات الشعب بعمق وخبرة . وأن لا يعارض لمجرد

المعارضة . وألا يكون هدفه الوصول إلى الكراسى .. بل أن يكون هدفه الأكبر هو النهضة بالبلاد فى كل مرافقها ونواحيها .

وأن يعمل جادا على إعادة بناء الإنسان المصرى على أساس تأكيد شعوره بالوحدة الوطنية ، التى كانت من أهم إنجازات الوفد المصرى فى عهده الأول . مع الاهتمام بمؤتمرات الحزب السنوية التى كان يراجع فيها براجه،ذلك أن الهدف الأكبر وهو إعادة بناء الإنسان المصرى الذى انهارت قيمه الاجتماعية ، والروحية ، والعقلية ، بانهيار الحرية والتكالب على المادية وضعف الروحية والمثالية وسطحية العقلية والفكرية ، مما جعل من الإنسان المصرى والمجتمع المصرى ذلك الكيان الهش بأحجار من القش ..

إذا استطاع حزب الوفد الجديد الذى كانت ولادته الأولى فى أحضان الحرية أن يسهم بسلوكه الديمقراطى الجديد فى بناء المصرى الجديد والمجتمع الحز الجديد فإنه سيقود الأحزاب الأخرى إلى ميدان التنافس الشريف حيث يعمل الجميع كل بطريقته ووسائله على إنهاض البلاد من كبوتها لتسير نحو التقدم والازدهار ليراها العالم مرة أخرى فى صورتها الحقيقية : « مصر العظيمة الخالدة » ..

مرضى الإرهاب .. والطبيب فالدهايم

هو مرض عضال ، يصيب جسم الإنسانية : جراثيمه تظهر فى اليد على صورة مسدس وقنبلة يدوية ، ما يكاد يشهرها شخص فى وجه إنسان آمن أو جماعة آمنة ، حتى تتجمد بالشلل .. وكما أن الجراثيم التى تدخل أجسامنا وتلحق بها الأمراض العادية لا تسألنا عما ارتكبناه من ذنب قبل أن تلحق بنا الضرر ، كذلك جراثيم الإرهاب لا تسأل ولا تناقش .. ولقد اجتمع كثير من الأطباء العقلاء فى مختلف أنحاء العالم ، يبحثون فى علاج لهذا المرض .. وهل هو من الأمراض التى تعالج بالمراهم والعقاقير ؟.. أم بالجراحة والاستئصال ؟.. ولقد حاول الطبيب الكبير « فالدهايم » أن يجمع كلمة موحدة فى هيئة الأمم لإزالة هذا المرض من جسم الإنسانية فلم يوفق حتى الآن فيما يظهر .. لأن بعض الدول تريد أن يستخدم هذا المرض سلاحا يوصلها إلى بعض الأهداف .. وقد تكون بعض هذه الأهداف مشروعة ، ولكن السلاح المستعمل غير مشروع .. ككل سلاح يصيب جسم الإنسانية بغير تمييز بين المذنب والبرىء .. بل إن هذا السلاح غير المشروع إجرامى ، لأنه يجعل البرىء هو الذى يدفع الثمن عن المذنب .. كما أنه يجعل دولا ، تساند الإرهاب وتحمى هذا المريض ، وبعضها عندك فى هيئة الأمم ـــ أيها الطبيب الإنسان « فالدهايم » ـــ وإليك المثل الصارخ فيما حدث أخيرا فى قبرص .. دخل مرض الإرهاب

فى هذه الجزيرة التى طالما ساندتها مصر .. وأنت تعلم ولا شك كيف كان رئيسها الراحل « مكاريوس » يعتمد على مصر فى جهاده الوطنى .. ماذا يقول ذلك الرئيس الصالح فى قبره وهو يرى اليوم جثة ابن بار من أبناء مصر طريحة على أرض وطنك يا مكاريوس ، وهى تنزف بالدماء من فعل الإرهاب ، ودبابات بلادك تنسف طائرة مصرية بطياريها ، حماية للإرهابيين ؟.. مهما يكن من حجة زعماء قبرص بأن طائرة مصر وجنودها قدمت بغير إذن ، فإنها لم تقدم لغزو يبرر تدميرها بهذا العنف .. عنف المعركة الحربية الحقيقية .. إنما جاءت لمساعدة دولة صديقة لمنع الإرهاب ، وعلى هذا الأساس ، سمحت لنفسها بالعمل السريع بغير إذن — إذا صح ذلك — فى أرض ترتبط معها بصداقة ومحبة ومودة لا شك فيها على أثر ظرف حزين هز وجدان مصر .. وكان يكفى لمثل هذه المخالفة من مصر — حسب حجة قبرص — مجرد الاحتجاج الرسمى ، وعلى أشد الإجراءات ، مجرد محاصرة القوة المصرية ، دون إطلاق النار عليها من الخلف .. أما الأمر للدبابات القبرصية بأن تطلق نيرانها فتنسف الطائرة بمن فيها من الطيارين المصريين ، وتفجير معركة حربية يسقط فيها هذا العدد من جنود دولة صديقة ، ما جاءوا إلا للمعاونة فى القضاء على الإرهاب ، فهو أمر تجاوز بكثير حجة الدفاع عن سيادة الدولة التى كان يكفى فيها ، كما قلت ، إجراءات أخف يراعى فيها الظرف المحزن ، وعلاقة الصداقة المتينة بين البلدين .. ولكنه الإرهاب .. وهذا وحده ربما السبب فى تصرف قبرص الغريب .. هذا الإرهاب الذى وقعت قبرص تحت تأثيره .. إرهاب من أفراد قد يكون وراءه جماعات لها خطرها

ونفوذها .. كان من نتيجتـه هذه التصرفـات السياسيـة والعسكريـة المؤسفة ...

هذا المثل الصارخ ، أضعه تحت نظر سكرتير عام هيئة الأمم ، كى يحقق فيه ، ويتحقق من خطورته ، ليس بالنسبة إلى عضوين فى هيئة الأمم فقط ، ولا باعتبار أنه من الحالات الفردية ، ولكن بالنسبة إلى وقعه على الإنسانيـة كلهـا ، بمجمـوع دولها وشعـوبها فى آواخـر هذا القـرن العشرين .. ذلك أن استمرار الإرهاب وترك المساندين له بغير إقناعهم بخطورة فعلهم ، سوف يؤدى إلى أوخم العواقب على البشرية كافة ، وعلى الحضارة الإنسانية برمتها .. بل وعلى موقع الدكتور فالدهايم الذى يشرف منه على المجتمع الدولى وأمنه وسلامه ، وعلى وسائل التقدم به ، فى جو من الطمأنينة على حياة الإنسان ونشاطه العقلى والروحى المتحرر من كل خوف وإرهاب ..

أسخف مقال ..

ولابد منه للاتهام الموجه أخيرًا بتخلف الأدب العربى .

ربما كان هذا المقال فعلا هو أسخف ما كتبت . ووجه السخافة فيه هو أن يكتب كاتب بنفسه وبقلمه ما يستفاد منه أنه يزهو بذاته ويقرظ عمله وينشر بالصور ما يظنه موضع فخر ، وكان الأجدر به أن يتولى ذلك عنه صحفى أديب فى صورة حديث أو تحقيق صحفى أبدو فيه كما لو كنت بعيدا عن الموضوع . وهو ما حدث ويحدث عادة لى ولغيرى . وقد كاد يحدث هذا بالفعل . فقد سمحت لأحد الصحفيين المعروفين بكتابة الموضوع بقلمه واسمه ويأخذ صورا مما يعتبر وثائق ضرورية لتدعيم مقاله . وهى مما كانت فى حوزتى منذ أعوام طويلة لا أفكر فى إظهارها واستخدامها كما يحدث اليوم . فما الذى جرى إذن حتى أعرض نفسى لمثل هذه السخافة ؟!

حاولت التغاضى عن الموضوع باعتبار الأمر لا أهمية له عندى بالقدر الذى يدعونى إلى الخوض فيه .. ولكننى لم ألبث أن وجدت الاتهام قد انتشر ويكاد أن ينقلب إلى قضية الأدب العربى كله وموقفنا نحن إزاءه من الشعور بمركب النقص أو الزيادة فى وقت بدأ العالم فيه يلتفت إلى البلاد العربية ومدى استيعابها للحضارة الحديثة ومدى استحقاقها للاهتمام العام

فى ميدان الفكر والأدب . وقليل منا من يعرف أو أتيح له أن يطلع على ما يكشف منه رأى العالم المتحضر فيما نكتب وننتج . ولذلك سمحت لنفسى بنشر بعض ما فى حوزتى من صور قد تشير إلى رأى أوروبى فينا باعتبارى أنى أحد أبناء البلاد العربية . أما رأينا نحن فى أنفسنا فهو متناقض بين الانتقاص من قدرنا أمام أوروبا انتقاصا لا يمثل الواقع وبين الزيادة المغرورة التى لا تمثل الحقيقة أيضا . أما مركب النقص فهو الزعم بأنه ليس لدينا مؤلفات عربية تصل إلى مستوى الأعمال الأوروبية . وهو افتراء يؤسف له وكان الأجدر به أن يصدر من أعدائنا الدائبين على إظهارنا دائما بمظهر التخلف الحضارى والفكرى . وربما كانوا هم يعلمون أكثر مما يعلم بعضنا نحن أننا لسنا فى هذا الدرك من الإهمال والإغفال . فهم ولا شك قد يعلمون بشىء مما نشر لنا فى الخارج . ومنها هذه الصور لترجمات الكتب التى نشرت لى أنا على الأقل بكل هذه اللغات الحية ، والمسرحيات التى مثلها لى كبار ممثلى العصر مثل الممثل الإنجليزى العظيم سير جون جيلجود زميل سير لورانس أوليفييه فى مسرح شكسبير، ولعلها أول مرة يمثل فيها جيلجود العالمى مسرحية لأديب مصرى عربى ومعه الممثلة الإنجليزية الكبيرة مرجريت لايتون . كما مثلت لى (الأديب العربى) الممثلة الفرنسية الكبيرة سيلفيا مونفور . وباللغة الإيطالية الممثلة المشهورة نيداناالدى . كما أنه لأول مرة فوق مسرح الموزاتيوم — دار الموسيقى موزارت — بسالزبورج تمثل لهذا الأديب العربى المصرى — مسرحية بالألمانية . إن هذا الأديب العربى نفسه قد وضع إلى جانب بيراندللو الإيطالى وتشيكوف الروسى فى برنامج واحد يضم ثلاث مسرحيات

قصيرة لهم لتعرض فى عشرة مراكز ثقافية فى أنحاء فرنسا . هذا إلى أن هذا الأديب العربى نفسه قد وضع اسمه بين أسماء أهم الروائيين فى العالم فيما بين ١٩٢٦ ــ ١٩٥٥ من أمثال مالرو وسارتر وشولوخوف ومورافيا وغيرهم.أكثر من ذلك فقد جاء فى تقرير لجنة القراءة للكوميدى فرانسيز بباريس وهى التى يرأسها « روبير كيمب » عضو الأكاديمية الفرنسية والناقد المسرحى لجريدة الموند ما نصه :« .. كم نتمنى لو ظفرنا ــ ولو بين الحين والحين ــ ضمن ما يرد إلى مسرح الكوميدى فرانسيز من نصوص مثل هذه الثروة فى الفكر والروعة فى الشكل .. (بالنسبة للمسرحيات العشر فى المجلد الأول لتوفيق الحكيم) .. أما من حيث المحلية فمما يستلفت النظر أن مسرحية « الصفقة » وهى ريفية بحتة عن قرية مصرية صغيرة وقد ترجمت ونشرت فى شمال أوروبا ومثلت فى السويد وهولندا والدنمارك وفنلنده فى عام واحد فى الستينات .. هذا وغيره مما لا يتسع المقام الآن لتفصيله قد يعطى فكرة عن الموقف الحقيقى للأدب العربى . ولذلك كان من الطبيعى وغير المبالغ فيه ترشيح طه حسين ثم توفيق الحكيم لجائزة نوبل منذ سنوات . أما لماذا لم تمنح هذه الجائزة لأديب عربى فهنا ندخل المنطقة الأخرى وهى مركب الزيادة أو الغرور . لأننا يجب أن نطرح السؤال بالنسبة إلى غيرنا ممن هم أكثر منا تقدما مثل الصين مثلا أو اليابان وقد ظلت مهملة طويلا ولم تظفر بها إلا مرة واحدة منذ نحو خمسة أعوام فقط، كما أن من الأدباء العالميين العظام من لم يظفر بها حتى اليوم

مثل ألبرتو مورافيا بل مثل أندريه مالرو الذى توفى أخيرا دون أن يظفر بها .

وفى النهاية هل هناك مبرر لارتكابى مثل هذه السخافة بنشر هذا الكلام ؟ إذا كانت نتيجة ذلك هي رد الاعتبار إلى أدبنا العربى ورفع الروح المعنوية لأدبائنا العرب فإنى أتحمل وزر سخافتى هذه ولا أبالى بشىء .

للمبادرة معنيان

عدت من رحلة ثقافية قصيرة فى أوربا صادفت خلالها أحد المفكرين وجاء ذكر المبادرة فأدركت السر فى اهتمام العالم بها . ليس العالم السياسى وحده ، بل العالم الإنسانى كله . هذا العالم الواسع بأهل فكره وجامعاته العلمية والأدبية ومحيطه الشامل لرجل الشارع من تاجر وزارع وعامل .. إن الأمر يجب أن يكون له إذن أكثر من معنى كبير . معنى أكبر من مجرد إجراء سياسى بين دول صغيرة فى منطقة محدودة على خريطة .

* * *

وهذا ما فهم فعلا من المبادرة فهى فى نظرهم دعوة للإنسان وإيذان بخروجه من عصر الغابة الذى شعاره « ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » إلى عصر التخلص من جاذبية الأرض والغريزة الحيوانية إلى عصر الفضاء والارتفاع الإنسانى بشعار يناسبه ، وهو السلام وبالسلام . وما أخذ بالقوة يسترد بالسلام.هذه الدعوة الإنسانية العليا الجديرة بالعصر الجديد ، الصالحة كمدخل للقرن القادم الحادى والعشرين وما بعده من قرون هى التى فهمها العالم المتحضر كله من المعنى الحقيقى للمبادرة ، ونهض نهضة رجل واحد ليصفق لها مهللا مبشرا بشروق فجر جديد للإنسان الجديد ، ولذلك أصبحت مِلك العالم كله وليست خاصة بالشرق الأوسط وحده . ولذلك فهى لن تموت لأن فى موتها موت لأمل

الإنسان العصرى والجنس البشرى فى إمكان خروجه من غريزة الغابة .. فهى الآن فى يد العالم المتحضر كله وعليه تقع مسئولية الحفاظ على هذا الأمل حيا فى النفوس ، والعمل على تحقيقه وتجسيده على أرض الواقع الحى ..

* * *

وهذا ما فهمته أنا وعبرت عنه فى أول سطر نشرته عن المبادرة ، وقلت إنه لا يهمنى منها الإجراء السياسى المحدود لأنها كإجراء سياسى لم أتوقع الإتيان بنتائج حاسمة ، لأن الباعث السياسى عليها من الأصل كان مجرد إزالة العقبات ونزع الأشواك من طريق جنيف ، لأن عقد السلام النهائى لابد أن يتم بإجماع كل الأطراف على مائدة جنيف ... ولذلك لست أفهم لماذا عارضها المعارضون وما هى من الناحية السياسية المحلية سوى تعبيد الطريق وتمهيد لإجراءات وإذلال لصعوبات لتيسير السبيل إلى مؤتمر الصلح النهائى الذى يتفق فيه كل الأطراف فى جنيف .. كذلك لست أفهم كيف وقع الخطأ فى تفكيرنا من أن المبادرة ستأتى مباشرة بالنتائج الفاصلة ، فلما لم تسفر عن تحقيق الآمال الكبيرة التى انتظرناها منها قال الكثيرون منا فى العالم العربى إن المبادرة قد فشلت .. وحقيقة الأمر فى نظرى ونظر الكثير من المفكرين فى العالم كله هو أن للمبادرة شقين ومعنيين وهدفين : المعنى العام وهى الدعوة الإنسانية التى تهم الجنس البشرى كله وتمس مستقبله ومصيره ، ومسئوليتها تقع على عالم الإنسان وجميع الدول والشعوب ، وهى الدعوة الباقية التى لا يمكن أن تفشل أو تموت ، لأنها لم تعد ملكا لأحد أو دولة أو أمة ولكنها ملك للعالم كله بدوله

وشعوبه ... ثم المعنى الخاص وهو الإجراء السياسى المحدد بقضية معينة فى منطقة وهو المعنى الذى يمكن أن تختلف فى تقدير نتائجه التفسيرات والتحليلات ... فلماذا لا نفهم الأمر على وجهه الصحيح هذا : وهو أن المبادرة كمعنى عام هى دعوة إنسانية للجميع وكمعنى خاص هى إجراء قُصد به التمهيد والتسهيل للصلح النهائى المبنى على رد الحقوق فى جنيف .. وقد نستفيد من المعنى العام لدعم المعنى الخاص ... والمهم هو الفهم والتفاهم فى منطقتنا بالحسنى والعمل بما أوصانا به ديننا الحنيف : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ .

اقتــراح

لا جدال فى أن مفاوضتنا و معاهدتنا فيما يتعلق بأرضنا هما حق لنا دون شريك ولكن المفاوضات والمعاهدات فيما يتعلق بأرض ليست أرضنا لابد أن تكون من شأن أصحاب الأرض .. ولذلك أرى بعد استلامنا العريش أن نبتعد عن التدخل فيما هو من شأن غيرنا .. ولنا أن نعتبر المفـاوضات التـى ستجـرى بخصوص الضفـة الغربيـة وغـزة ليست مفاوضات مصيرية كما أكد السيد الرئيس ، بل هى كما يمكن أن أسميها مفاوضات إنسانية لرفع المعاناة عن كاهل الشعب الفلسطينى .. أما مفاوضات تقرير المصير فهى تدخل فى نطاق المرحلة الثانية التى جاء ذكرها فى كامب ديفيد وهى المرحلة التى يجب أن يقوم بالتفاوض فيها الفلسطينيون أنفسهم أو من يمثلهم من منظمات التحرير . وهنا أقترح أن تكون رئاسة هذه المرحلة للسوفييت .. ذلك أن الاتفاق السابق الذى نص على أن تكون رياسة المفاوضات فى جنيف لأمريكا والاتحاد السوفيتى بالتبادل أو التناوب هو اتفاق فيما يبدو قائم ، ولم يرد ما يدل على إلغائه . وأن ما يحدث فى كامب ديفيد لم يكن سوى مجرد مرحلة أولى للسلام برئاسة أمريكا ، وأن المرحلة الثانية يمكـن أن تكـون برئـاسة الاتحاد السوفيتى فى جنيف . ولمصر أن تشارك فيه إذا طلب منها ذلك .. وعلى هذا الوضع لا يكون هناك تناقض بين كامب ديفيد وجنيف ، وأن ما

حدث إنما هو تقسيم الحل الشامل إلى مرحلتين : مرحلة أولى برئاسة أمريكا ، ومرحلة ثانية برئاسة السوفييت ذلك أن السلام الشامل يستلزم الاتفاق عليه بين القوتين الكبيرتين ، حتى نضمن لهذا السلام فى المنطقة قوته واستمراره ، ويلتئم به شمل الجميع وتنعم المنطقة كلها بثماره .

تحت ظلال السلام

الزراعة هى بترولنا

السلام ليس كلمة عاطفية شاعرية .. إنما السلام شجرة طيبة ، نزرعها لنعمل فى ظلها العمل الذى يرفع مستوانا الاقتصادى والحضارى .. وهذه العبارة : « الزراعة هى بترولنا » ، لست أنا قائلها .. بل قائلها هو الرئيس الفرنسى فاليرى جيسكار ديستان فى خطبة له أمام اجتماع واسع للمزارعين فى فرنسا .. رأيته وسمعته يقولها لهم وأنا أشاهده فى التلفزيون الفرنسى أثناء وجودى أخيرا فى باريس .. ولقد انغرست هذه العبارة فى رأسى ونفسى ، وقلت من فورى : « هذه العبارة نحن أولى بها ! » .. فمصر هى أم الزراعة والمزارعين منذ مبدأ التاريخ .. فهى ناقلة البشرية كلها من عصر الصيد إلى عصر الزراعة ، ومن مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة .. فعلينا نحن إذن أهل مصر ، نبت النيل ، وأم الزرع ، أن نجعل الزراعة أساس اقتصادنا ، وأن نعتبرها بترولنا .. وأن نوليها العناية الأولى .. وأن نقيم صناعتنا على دعائم زراعتنا .. فالتصنيع عندنا يجب أن يكون فى المقام الأول هو التصنيع الزراعى ..ولقد ثبت بالفعل أن أنجح صناعة لنا هى صناعة النسيج القائمة على قطننا .. وكلما ابتعدنا عن زراعتنا بصناعة دخيلة لا تتصل بثمرات أرضنا ، بؤنا

بالخسران .. وإنى لأتوقع عهد سلام دائم أنظر فيه بعين الواقع المأمول ، لا بعين الخيال المستحيل ، فإذا بصحرائنا الجرداء قد اخضرت بالمزارع والمراعى ، وإذا بمصانعنا على مقربة من الحقول للنسيج والتعليب ، تجنى من قطننا ، وتنسج الثياب ، وتجمع من خضرنا وفاكهتنا وتعلب الأغذية ، ومن مراعى ماشيتنا وحظائر دواجننا وطيورنا ، يغمرنا الطعام لكل فم باللحوم والألبان والجبن والبيض والخضر والفاكهة ، فلا يكون فى أرض النيل محتاج إلى غذاء أو كساء .. ويعم بعد ذلك فائض إنتاج بترولنا الزراعى على كل من يحتاج إليه من بقية الأمم.... ولذلك أتصور الاهتمام بزراعة كل شبر فى أرضنا ، زراعة علمية مكثفة ، على أساس الميكنة .. وأن تقوم صناعتنا الثقيلة والخفيفة على إنتاج الجرارات والثلاجات والمعلبات بكميات وفيرة على مقربة من الحقول ، حتى يعمل فيها الفلاح الوقت المتبقى له بعد أن وفرت له الميكنة الوقت الذى كان ينفقه بالأدوات التقليدية القديمة .. وبذلك يكون الفلاح زارعا وصانعا فى نفس الوقت ، مما يزيد دخله ويرفع مستواه ، ولا يبعده عن أرضه وقريته وعشيرته . كل شيء إذن فى أرض مصر خالقة الزراعة على هذا الكوكب يجب أن يخدم وينمى زراعتنا .. حتى العلم فى معاهدنا ومعاملنا يجب أن يشغل فى المقام الأول بما يهم الزراعة ، بترولنا الأول ، فتنشأ فى القرى والحقول المدارس وكليات الزراعة ومعامل التحليل التى تتخصص وتتعمق فى دراسة كل منطقة ، بما تتصف به وتتميز به من نوعية خاصة فى طبيعة الأرض والحاصلات بما يكفل تحسين التربة ومضاعفةالإنتاج .. هذا إلى جانب العناية بتطوير الصناعات الزراعية بما يرفع مستوى القرية فى

مساكنها وشوارعها وخدماتها العامة وحياتها الثقافية والاجتماعية ، فلا تتكدس العواصم الكبرى وتختنق بالنازحين الهاربين من بؤس الأرياف وفقرها .. هذا تصورى لمستقبل مصر بعد السلام وتحت ظلاله ، فهل نستطيع أن نخطط منذ اليوم لهذا المستقبل ؟.. أرجو أن يكون لتصورى هذا صدى فى النفوس والعقول ، وأن نجعل شعارنا هذه العبارة التى غرست فى نفسى وعقلى : « الزراعة بترولنا » ...

نداء : من توفيق الحكيم

إلى معاونه السابق أبا إيبان :

اقتراح إنشاء جمعية عربية إسرائيلية بباريس

لدى مروره فى باريس طلب منا الكاتب المصرى الكبير توفيق الحكيم مؤلف كتاب « يوميات فى الأرياف » أن ننشر له النداء التالى :

أنا الكاتب المسلم المصرى الذى يتحدث اللغة العربية كان لى معاون هو وزير سابق فى إحدى حكومات إسرائيل . بدأت القصة فى عام ١٩٤٣ ، عندما كان السيد أبا إيبان فى القاهرة يعمل مع الجيش البريطانى . وهو مستعرب ذو علم واسع ، بعث لى برسالة مكتوبة بلغة عربية ممتازة يخبرنى فيها بأنه بدأ فى ترجمة كتابى « يوميات نائب فى الأرياف » إلى اللغة الإنجليزية .

ونشر الكتاب فى لندن فى عام ١٩٤٧ ، وكان الكاتب بمثابة بداية لتعاون مثمر تحول بعد ذلك إلى عداء ضار .

وفى الوقت الحاضر لا يمكن أن نقول أن للكتاب وجودا وإعادة طبعه توقفت تماما ، نظرا لأن المتعاونين أصبحا أعداء وآمل أن نستأنف تعاوننا السابق .

وعندما توجه توسكانينى إلى مصر ليقود أوركسترا القاهرة السيمفونية ، لاحظ غياب بعض العازفين الذين أحضروا من تل أبيب . وأثناء إقامتى القصيرة فى هذه المدينة استقبلنى مدير مسرح « حابيماه » الشهير ، وقابلت ماكر برود وصديقى مترجم وناشر كافكا الذى كان يشغل منصب المستشار الأدبى للمسرح ، وتحدثنا عن إمكانية إخراج مسرحيتى « سليمان الحكيم » التى اقتبست من التوراة والقرآن فالتعاون الثقافى والفنى بين العرب والإسرائيليين كان قائما فى هذه المنطقة .

أنا لست سياسيا ، ولكن أبا إيبان قبل أن يكون رجل سياسة ، كان أديبا ورجلا محبا للإنسانية فما رأيه بالذى يدور الآن ؟ هل بإمكانك يا معاونى السابق أن تعمل من أجل إقامة السلام فى المنطقة ؟

وفى هذه الأثناء ، أتمنى أن أبدأ بخطوة نحو التعايش الثقافى المنشود باقتراح إنشاء جمعية عربية — إسرائيلية فى باريس ، وأقدم من أجل هذه الفكرة مبلغا متواضعا : ٣٠٠ دولار موجودة فى جيبى فى هذه اللحظة . فهل سيدعم بعض الأصدقاء أو المنضمين للجمعية هذا الاقتراح ؟

انتظر متفائلا آملا .

الحيـــاد

لن تعرف مصر لها راحة ، ولن يتم لها استقرار ولن يشبع فيها جائع إلا عن طريق واحد : يكفل لها بذل مالها لإطعام الجائعين والمحتـاجين ، وتكريس جهدها للتقدم بالمتخلفين ، وتوجيه عنايتها إلى الارتقاء بالروح والعقل فى مناخ الحرية والأمن والطمأنينة .. وهذا لن يكون أبدا ما دامت الأموال والجهود تضيع بعيدا عن مطالب الشعب ، بدافع من مشكلات خارجية ودولية تغذيها الأطماع الداخلية والشخصية .. ما هو الطريق إذن إلى واحة الراحة والاستقرار وطعام المعدة والروح والعقل ؟.. إن هذه الواحة المورقة المزهرة اسمها « الحياد » ..

نعم ... إن مستقبل مصر الحقيقى هو فى حياد مثل حياد سويسرا والنمسا .. هذا الحياد الذى أنقذهما من المنازعات والتيارات التى ألقت بكثير من الدول فى خضنم بحار مضطربة من السياسات المتعارضة .. وقد اعترف العالم لسويسرا والنمسا بهذا الحياد ، مع أن مبررات حيادهما أقل فائدة بكثير للعالم من حياد مصر .. وذلك لما أبديه فى النقاط التالية :

مبررات الحياد للعالم:

هذه المبررات يفرضها الموقع الجغرافى لمصر ، من حيث هى صاحبة قناة السويس التى يجب أن تظل مفتوحة دائما لخير العالم كله .. لا أن

تتعرض للإغلاق بين حين وحين ، فيصاب العالم من جراء إغلاقها بالأزمات الاقتصادية .. ثم يفرضها أيضا الوضع الحضارى لمصر .. فهى الوحيدة فى الدنيا التى تعتبر — بحق — « متحف العالم » ، لأن فيها أكثر آثار الحضارات مجتمعة : فيها آثار الفراعنة ، والإغريق ، والرومان ، والمسيحية ، والإسلام .. فى حين أن بلدا مثل اليونان يفخر بوجود آثار حضارة واحدة هى الإغريق ، وأن بلدا مثل أسبانيا يزهو بحضارة العرب .. وبذلك كانا فى مقدمة البلاد السياحية . أما مصر ، فالذى يأتى إليها يجد جوا فريدا فى الدنيا بنسماته وشمسه اللطيفة طوال السنة ، ومتحف العالم القائم فيها بكل آثار الحضارات على مراحل التاريخ مجتمعة فى دولة واحدة ..

حضارة ملك الدنيا :

ولأن الآثار الحضارية لتاريخ البشرية الموجودة فى مصر يعتبرها العالم المتحضر ملكا لجميع الدول ، فقد تكاتفت كل الدول وساهمت بمالها وجهدها فى نقل وترميم معبد « أبو سمبل » ، ولذلك فأى تخريب لهذا المتحف العالمى نتيجة مشكلات سياسية أو مغامرات عسكرية ستكون له نتائج وخيمة من الناحية العقلية والفكرية للدنيا بأسرها مماثلة للنتائج الوخيمة الاقتصادية التى تصيب الدنيا من جراء انسداد الشريان الحيوى لاقتصاد العالم وهو « قناة السويس » .. لذلك فإن العالم كله سوف يرحب ويضمن « حياد مصر » ..

مصر قلب العرب

وإذا كانت مصر هى متحف العالم ، فهى فى نفس الوقت القلب الحضارى للعرب .. وكل ما تناله من تقدم حضارى هو ملك للعرب والعروبة .. فكل جامعاتها ومدارسها وأساتذتها وعلمائها وفنانيها ومتاحفها وآثارها ومسارحها ومغانيها وجوها ونيلها وشواطئها وفنادقها ومصارفها وشعبها وعمالها وزراعها ... وكل شيء فيها هو ملك للعرب وفى خدمتهم ... والحاجة الملحة للعرب والعروبة اليوم هى النهضة الحضارية التى تكفل لهم القوة الحقيقية .. وهذه ينبغى أن تكون رسالة مصر التى تلقى على عاتقها ويطالبونها بها ويعملون على أن تتفرغ لها مصر وتكرس كل جهودها من أجلها وحدها .. فلا تشغلها عنها مشاكل سياسية ومشاغل حربية، مما يستطيع غيرها القيام به.. فعند العرب الآن المال والرجال .. ولا شك أنهم قد شبوا عن الطوق ، ولم يعودوا فى حاجة إلى إلقاء المشاكل والمشاغل على كاهل مصر ، لتشل فكرها وتنزف دماءها ، ويجوع أبناؤها .. إن قلب مصر المفتوح للعرب دائما هو قلبها الحضارى .. وهو القلب الذى هم فى حاجة إليه للسير فى طريق النهضة والعزة والقوة الحقيقية .. فليحافظوا على هذا القلب ..

جيش مصر

أما جيش مصر فيجب أن يكون جيشا دفاعيا قويا مزودا بأحدث الأسلحة لا للهجوم والاعتداء ، ولكن للدفاع عن حياتها ، فلا تجرؤ قوة مس شبر واحد من أرض مصر المحايدة ، دون أن تجد هذه الأرض الطيبة

المسالمة قد أصبحت جحيما يصلى بنار ذات لهب كل من يمس هذه الأرض بسوء ، أو يعتدى على حيادها واستقلالها ..

فكرة الحياد

إنى أعلم أن فكرة الحياد هذه ليست واردة فى ذهن حكومتنا ولا فى برنامج حزب من أحزابنا ولكنه رأى لى ، ليس من حق أحد أن يمنعنى من اعتناقه وإعلانه . وخاصة فى وقتنا الحاضر الذى نشعر فيه بحرية الرأى .. فرأيى الذى أومن به وسأظل أدعو إليه ، هو هذا الحياد لمصر .. هذا الحياد الضرورى لها والمفيد لأشقائها العرب .. حياد مصر الذى يجعل منها الصدر الحنون للجميع .. فلا تشعر مصر أنها فى حالة رهن دائم ، وأن مصيرها ومستقبلها وكيانها مرهون فى « بنك رهونات » النزاعات والمشكلات التى تعرقل جهودها فى إطعام شعبها وفى التقدم النافع لها ولأشقائها .. إنى أعرف الصعوبات القائمة فى هذا الطريق .. فمن الأفراد والجماعات والدول من يريد زج مصر فى المعترك ، ليستخدمها لمنفعته أو لمصلحة طرف ضد طرف .. ولكن المخلص الحقيقى لمصر ، والناظر النزيه بعين الفائدة إلى منطقتنا وإلى الإنسانية ، سيرى الحق كله فى هذا الرأى .. وإنى أعرضه اليوم لينظر فيه الشرفاء المخلصون فى كل مكان .. ولن أكف عن العمل من أجله ، وسأكون مع كل فرد أو حزب أو هيئة تجعله من شأنها واهتمامها وبرنامجها ..

والله ولى التوفيق ...

هذا هو رأى مصر ..

فى حياد مصر

كان لما نشر فى أخبار اليوم والأخبار من ردود على دعوة « الحياد » وما تجمع من آراء فى هذا الموضوع ما يوجب اطلاع الجمهور عليه ، وننشره فيما يلى بقدر ما يتسع المقام مشفوعا بما سمحت به لنفسه من هذه الملاحظات :

● أول ما لاحظت على هذه الآراء والردود يقظة مصر ووعيها بنفسها وبما آل إليه حالها لشدة ما قاست وتقاسى من الآم جروح عميقة سببتها حروب عديدة متلاحقة تحملت هى فيها أكبر الأعباء وأشد الصدمات وكسب الآخرون ولم تظفر منهم بغير اللعنات من جانب وبعض المراهم السطحية للجروح من الجانب الآخر حتى آمنت آخر الأمر بأن لا شىء غير مصر وأن مصر قبل كل شىء .

● إن الألفاظ الإنشائية عن التزامات مصر وزعامتها وقيادتها لم تعد تقنع أهل مصر الجائعة وأن قلة ممن ليسوا من الجياع ولكن من الشباع هم الذين يتمتعون بترف التفلسف بهذه الألفاظ . أما الأغلبية الباحثة عن لقمة العيش فهى تتساءل :

لماذا الحديث دائما عن التزامات مصر نحو الآخرين ، ولماذا لا نسمع

أحدا يفكر فى التزامات الآخرين نحو مصر ؟!

● أخذ المصريون يفطنون ، ويتذكرون كيف أن أمريكا أنهضت حلفاءها فى أوربا بعد الحرب العالمية الثانية بمشروع مارشال الذى أقامها على قدميها مستردة قوتها الصناعية وليس بمساعدات ومراهم سطحية .

فى حين أن مشروعا مثل زراعة المائة مليون فدان فى السودان الذى يقضى على جوعنا قضاء نهائيا لا يجد فى مئات المليارات عند أشقائنا حصة ضئيلة ضمن المال الذى ينفق فى شراء فنادق إنجلترا وجزر أمريكا !..

● التضامن العربى ليس كلمة لغوية ، لكنه صندوق أموال استثمارية . والوحدة العربية ليست هى الجوع فى جانب والشبع فى جانب آخر ..

● أغلبية المصريين فطنت وأيقنت أن من يطلب التزامات من مصر يجب أن يقدم التزامات نحو مصر ..

● مصر قد زالت عنها الغفلة بعد طول عنائها ، فلم تعد تقبل من أحد طعاما من الألفاظ الحماسية والعبارات الإنشائية والشعارات الانفعالية !.

● فكرة « الحياد » كما أقصدها ليست حتى الآن ، فيما لاحظت ، واضحة تماما فى الأذهان ، فالبعض يظنها العزلة السياسية . والبعض يتوهمها المقاطعة الاقتصادية . فى حين أنى لا أتصور حرمانى من المشاركة برأيى فى المواقف السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية بما يتمشى مع اقتناعى بعقيدتى ومصلحتى وأن أرتبط مع غيرى ممن أرى الارتباط به ضروريا فى مشاركات دفاعية ومساهمات مالية واقتصادية ومعاونات ثقافية وحضارية . فليس مبدأ « الحياد » كما أريده مجرد تعريفات قانونية

جامدة مما يقرأ فى كتب القانون الدولى ، ولكنه « الحياد » الذى نستخلصه لأنفسنا كعلاج لحالة مصر التى تستتفز دائما وتستدرج إلى حيث تترك لقمة عيشها وتلقى بنفسها منفعلة فى موارد هلاكها إلى حد أن أهملت تجديد ماسورة مياة عمرها ثلاثون عاما وتركتها تنفجر وتعزل مواصلاتها التليفونية عن العالم ، وهى مشغولة بنكبات الحروب المتلاحقة ..

لابد إذن من حل يؤمنها ضد الاستفزازات والاستدراجات والانفعالات التى يثيرها فى نفوسنا الآخرون صائحين بأنه واجبنا والتزامنا فنفقد عقولنا ونهرع نلقى بأنفسنا فى المهاوى ونبقى نحن فيها محطمين ننتظر من يخرجنا منها ، ويطول الانتظار ، والآخرون فى شغل عنا بمصالحهم ، كما لو كان من واجبنا نحن والتزامنا أن نبقى مطروحين أرضا ننتظر .. ونظل ننتظر .. وها نحن أولا دائما ننتظر !!..

• حياد مصرى أو عربى ؟

توفيق الحكيم

أرجو أن تستمر مناقشات موضوع حياد مصر على صفحات الجرائد حتى يتاح لنا نحن المصريين فى الخارج متابعتها . ولنسأل أنفسنا هل يكون الحياد مصريا أم عربيا ؟

وأنا أرى أن نتكلم كمصريين عن حياد مصر وأن نترك كل دولة عربية أخرى تحدد مسارها وخطها السياسى بما يتراءى لها .

إن مصر الأم وقد كبر أبناؤها فى حاجة الآن إلى العلاج من أمراضها

وتدهور صحتها .. ولا أعتقد أن حياد مصر سوف يزيد من فرقة العرب .. فالانشقاق موجود بفضل هؤلاء الذين يثيرونه فى لبنان وفى صحراء المغرب وفى قبرص وعلى الحدود المصرية الليبية ..

مهندس حسنين الجمال — لندن

• • الحرب على الفساد .. قبل الحياد ..

توفيق الحكيم

قبل الكلام عن حياد مصر يجب أن نقوم أنفسنا داخليا .. إن ما نعانى منه راجع إلى ما تعانيه أخلاقياتنا فنحن نسمع عن فضيحة هضبة الأهرام ونجد من يدافع عنها ونسمع عن عويضة والمغربى وأحمد يونس وصفقة البوينج . ونسمع عن أشياء كثيرة ونجد من يدافع عنها وإنى أسأل : ما هى أهمية الحياد أو الانحياز ونحن نسير فى هذا الطريق وهل نسينا ما جرى فى يونيو ٦٧ ؟.. أرجو أن تركزوا جهودكم الفلسفية والإعلامية للقضاء على الفساد أولا .. وبعدها يكون لدعوتكم للحياد معناها ..

د . خالد الشاذلى

• • مصلحة مصر ... أولا ..

توفيق الحكيم

كثير من الحكام يحتفظون بورقة الشعارات يلعبون بها ليبقوا فى كراسيهم أطول فترة ممكنة . ولكن الرئيس السادات انتهج أسلوبا يخدم مصالح بلدنا العزيزة مصر عندما نادى بالسلام وأيدته الملايين المحبة

للسلام . ولهذا نحن نؤيد فكرة حياد مصر التى طرحتموها بكل مشاعرنا ونختلف مع من يقول إن حياد مصر يبذر الشقاق بين العرب وأنا مع الأستاذ فكرى أباظة الذى قال فى عيد الفن الماضى : إن مصلحة مصر فوق كل اعتبار .

ميشيل جرجس
مصر الجديدة — بالمعاش

•• الطلبة مع الحياد ..

توفيق الحكيم

فكرة الحياد التى طرحتموها تلقى ترحيبا هائلا بين الرأى العام وخصوصا فى الأوساط الطلابية الواعية .. ليس من المعقول أن تستمر مصر فى هذه التضحيات الهائلة فى سبيل العرب ثم يطالبنا البعض بالاستمرار فى هذه التضحيات ونترك أرضنا المحتلة .

محمد نوح — طالب جامعى

•• درس من أسبانيا ..

توفيق الحكيم

ظل هتلر وقتا طويلا يحاول استمالة الجنرال فرانكو لكى تعلن أسبانيا الحرب على الحلفاء . وقال هتلر عبارته المشهورة : إننى أفضل أن يخلع الطبيب لى ثلاث أضراس بدون بنج على أن أناقش هذا الرجل الذى يصر على حياد أسبانيا ..

وليتنا فى مصر تعلمنا من هذا الدرس . وكنا قد وفرنا ٤٠ بليونا من

الجنيهات وأفقدنا ألوف الأرواح التى ضاعت فى الحروب التى دخلناها ..

دكتور بولس صليب غبريال

المحلة الكبرى

•• مطلوب حياد كل العرب ..

توفيق الحكيم

الوطن العربى به من الامكانيات والطاقات ما يجعل من العرب دولة عظمى .. ولو تحققت هذه الدولة لأصبحت خطرا يهدد أطماع الدول الكبرى .. التى تحاول استقطاب الدول العربية بأيدلوجيات مختلفة لتمزيقها .. والدعوة لحياد مصر من شأنها أن تعزل الجزء الإفريقى من الأمة العربية عن الجزء الأسيوى منها .. ويزيد من تنافر العرب ويقدم للدول الكبرى ما تسعى إليه من أطماع دون عناء ..

والمطلوب فى هذه الفترة حياد العرب جميعا .. وليس حياد مصر عن العرب ..

أحمد إبراهيم الصعيدى

كلية الطب

•• الحياد .. حل لمشاكلنا ..

توفيق الحكيم

حياد مصر هو العلاج الناجع لمشاكلها التى تراكمت على مر السنين .. والحياد هو وحده القادر على تحويل مصر من مرتع دائم للحروب ووكر للخراب إلى جنة وارفة الظلال بعيدا عن الصراع الدائر

حولها .. والحياد سيكون الحصن الواقى لمصر من التناقضات السياسية والاجتماعية فى نظم الحكم التى تحيط بها . والحياد سيجعل مصر لأبنائها بكل خيراتها .. وهو أمل كل شاب مصرى يحب مصر .

محمد أمين عبد المنعم

مأمور ضرائب — جرجا

•• حتى يعود الرخاء ..

توفيق الحكيم

فكرة الحياد التى طرحتموها ضرورية الآن لمصر حتى تنهض وينعم شعبها بالرخاء مثل جيراننا العرب .. ويؤلمنى أن بعض العرب لا هم لهم حاليا إلا الهجوم على مصر وشعبها فى الصحف والإذاعات . بل إن بعضهم يعاملون أبناء مصر بطريقة لا تليق ويعطونهم أرخص الأجور .

إننا نريد أن نحرر أراضينا وأبناءنا من هذا الظلم .

محمد عبد الوهاب المراكبى

أخصائى اجتماعى — الرياض

•• حان الوقت لنتحرك ..

توفيق الحكيم

حان الوقت أن تنفض مصر عنها هذا الغبار .. وأن تأخذ بالأسلوب العلمى حتى نلحق بقطار الحضارة .. وحان الوقت أيضا أن يناقش مجلس الشعب فى دورته الحالية فكرتهم عم حياد مصر لاتخاذ القرار المناسب من

أجل مصر . وكفانا امتهانا وإذلالا ..

أنيس ميخائيل رزق

مدير التدريب بوزارة التعليم

(سابقا)

• • لن نسمح بذلك مرة أخرى ..

توفيق الحكيم

دعونا نردد دائما أن مصر للمصريين . وما نعانيه الآن هو حالة فقدان للذاكرة وانفصال عن ماضينا العريق وحضارتنا التى ترجع إلى ٧ آلاف عام .. ولا يجب أن نسمح لأحد أن يجعلنا ننسى تراثنا مرة أخرى وبالذات فى مرحلة التحول الخطيرة التى نعيشها الآن .. وأرجو أن تستمروا فى الدعوة لحياد مصر حتى لو تطلب الأمر إنشاء حزب ينادى بهذا الحياد .

عصام عوض

طب عين شمس

• • حرام أن تضيع مصر ..

توفيق الحكيم

سلوكنا مع أنفسنا ومع إخواننا العرب خطأ فى خطأ . ولنتذكر المثل القائل : من ذلك الذى يترك ميته فى داره ويذهب ليشيع ميت الآخرين ؟!.. إن مشاكل إخواننا العرب كثيرة . ونحن أيضا لدينا

مشاكلنا التى ينوء عن حملها الجبل .. وحرام أن تضيع مصر فى هذه المتاهات ..

بطرس فرج
من أبناء مصر

•• لا أوافق على الحياد ..

توفيق الحكيم

عالم اليوم لا يوجد فيه ما يسمى بالحياد .. وحياد سويسرا المزعوم لم يكن نابعا منها وإنما مفروض عليها من ألمانيا . ونفس الشيء حدث مع النمسا .. فقد فرضوا عليها الحياد أيضا .. وكيف يمكن أن ندعو لحياد مصر فى هذه الظروف المصيرية الحرجة فى حياة مصر وحياة الأمة العربية كلها .

محمد الأمير شاكر
مجلس محلى كفر الدوار

•• لماذا سكتت الأحزاب ..

توفيق الحكيم

لا شك أن دعوتكم لحياد مصر تلقى القبول والمؤازرة لدى ضمير أفراد الشعب المصرى .. وقد ترددت هذه الدعوة من قبل ولكن الحاكم الأوحد أخمدها فورا .. وكان عظيما منك أن تجهر بها .. وللأسف أى حزب من أحزاب مصر الحالية لم يتضمن برنامجه الدعوة لحياد مصر ..

وأرى قيام رابطة تشكل المؤيدين لدعوتكم لنشرها ..

طه زين الدين

مدير البحوث بوزارة التعليم

•• المصريون ليسوا عربا ..

توفيق الحكيم

المصريون ليسو عربا .. وإنما هم من أصل عربى .. ولم نسمع أن الاستراليين يقولون إنهم إنجليز لأن غالبيتهم من أصل إنجليزى وعندما تسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه مفاتيح القدس . تسلمها بوصفه أمير المؤمنين وليس أمير العرب ..

على عز الدين إسماعيل

محاسب ـــ مصر الجديدة

العروبة : بين الوحدة والحياد

١ ـ الشعور :

أردت بعد الحرب العالمية الثانية وبالتحديد فى عام ١٩٤٩ أن أسافر إلى فرنسا . وجهزت أوراقى . ولم تبق سوى تأشيرة القنصلية الفرنسية . وإذا بالقنصل الفرنسى يرفض إعطائى هذه التأشيرة لدخول فرنسا . فذهبت إليه أستطلع السبب ، فأخرج من درجه ملفا وجعل يعدد لى تهما قائلا :

ـ أنت فى عام ١٩٤٣ كتبت مقالا عنيفا ضد فرنسا بعنوان « خيبة أمل » قلت فيه إن أملك خاب فى فرنسا التى تطأ بأقدامها استقلال شعب صغير ... الخ

فتذكرت المناسبة .

كان ذلك على أثر اعتداء السلطة الفرنسية فى بيروت على كرامة لبنان واعتقالها يومئذ رئيس جمهوريته ووزرائه ونوابه !.. فقلت للقنصل :

ـ ألا يستحق مثل هذا الاعتداء على شعب شقيق أن أكتب فيه مثل هذا المقال ؟

فلم يلتفت القنصل إلى كلامى واستمر ينظر فى الملف ويقول :

ـ ثم حدث بعد ذلك أنك أهنت فرنسا برد نيشان فرنسى إليها كانت قد أهدته إليك بمناسبة ترجمة مؤلفاتك إلى الفرنسية عام ١٩٤٨ ..

وهنا تذكرت أيضا السبب . وكان على أثر اعتداء فرنسا على تونس ، وكانت مذابح وضحايا فتكونت فى مصر لجنة من الهلال الأحمر لتذهب إلى تونس بالأدوية اللازمة للجرحى ، وإذا بالسلطات الفرنسية هناك ترفض دخول هذه اللجنة المكونة من أطباء مصريين يحملون الدواء ..

فقلت للقنصل :

ــ ألا تريد منى أن أغضب لمثل هذه الاعتداءات على شعوب هى لنا بمثابة الشقيقات ؟...

ومضت الأيام وتذكرت ذلك فتعجبت لنفسى ... ما الذى كان يغضبنى كل هذا الغضب إلى حد مخاصمة فرنسا التى أحبها؟! أنا لم أكن يوما من حملة الشعارات لا للوحدة العربية ولا لغيرها من مواقفنا المصرية . إنما أنا أتصرف دائما من وحى شعورى التلقائى ونظرتى الخاصة إلى الأمور . إذن غضباتى صادقة ، لأنها نابعة من داخل نفسى ، ونظراتى خالصة لأنها صادرة من تقديرى وحدى . وما دمت دائما صادقا مع نفسى وهى المنبع عندى فالأمر إذن حقيقى . وإذا كنت أغضب تلقائيا لما يمس أى شعب عربى ، فمعنى هذا أنه لابد أن يكون هناك شىء مشترك. وعندما أقول إنى اسمى هو « توفيق الحكيم » فإن كلمة « الحكيم » هى الاسم المشترك الذى يقاسمنى فيه أبى وابنى وشقيقى . ولكن اسم « توفيق » هو شخصيتى أنا ووجودى أنا وتجاربى وقدراتى وعيوبى وظروفى ... لن أتخلى عن اسم « توفيق » الذى هو نفسى . ولا أنسى « الحكيم » الذى هو اسم « الأسرة » التى أنتمى إليها .. اللقب هو الانتماء والاسم هو « الشخصية » ... وعندى إن الوحدة العربية كالوردة نحبها

ونشمها ولا نفركها بأيدينا . هذا ما كتبته ونشرته فى كتابى « رحلة بين عصرين » عام ١٩٧٢ ...

غير أنى فى الثلاثينيات ، وبالتحديد فى كتابى « تحت شمس الفكر » كتبت أقول : « سألنى سائل عن رأيى فى الوحدة العربية فأحلته على آرائى السابقة وقلت له إنى لم أغير موقفى . فأنا على الرغم من رغبتى فى تكوين شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من الأمم العربية والشرقية فإنى أحب أن نتذكر دائما أننا إزاء الغرب لنا صفة واحدة تجمعنا وينبغى أن نحافظ عليها . فأوروبا اليوم فى « الثلاثينيات » عندما تبين لها خطر الحروب التى تقوض المدنيات ، قد ارتاعت وأرادت أن تحافظ على مصير ما تسميه « الروح الأوروبى » . ونحن الشرقيين والعرب لنا من غير شك كذلك ما نستطيع أن نسميه « الروح الشرقى » والعربى . إن طابعنا الفكرى وطريقة نظرنا إلى الأشياء وتقاليدنا وإحساسنا بالجمال الذهنى وأسلوبنا فى التعبير عن حقائق الأشياء ... كل ذلك ينم عن عقلية خاصة وعبقرية مستقلة ... يجب أن نبحث عنها وننميها ... فإذا نادينا بالوحدة العربية فإنما ذلك لندعم كتلة « الروح الشرقى والعربى » أمام كتلة الروح الغربى والأوروبى .

٢ — الثقافة

« وليس معنى دعم الروح الشرقى والعربى » هو حبس تفكيرنا فى حدود قومية ضيقة . بل هذا الدعم لن يأتى إلا إذا عطف كل بلد من بلاد العرب على نفسه فى أول الأمر ليستخرج من بطن الأرض التى يحيا عليها كل كنوز ماضيها .

حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللالئ القديمة مجلوة منزوعا عنها التراب صب ذلك الثراء كله فى معين واحد مشترك وقدم إلى الإنسانية باسم « الثقافة الشرقية العربية » وذلك بعد أن تكون هذه الثقافة العربية قد ضمت إلى حصيلتها وكنوز ماضيها تلك الثروة الطائلة الهائلة فى الثقافة الأوروبية التى صنعت حضارة أوروبا ... فهذه الحضارة الكبيرة لم تنبع فقط من داخل ذاتها بل من قطوف ثمار أشجار الفكر البشرى فى كل مكان وزمان . فالحضارة الأوروبية لم تخلق بيدها خلقا كل هذه القوالب المعروفة فى آدابها وفنونها بغير ينابيع قديمة ، ولا كل هذه النظريات الشائعة فى فلسفتها وعلمها بغير جذور .. فإن كثيرا من هذه القوالب والنظريات مأخوذ عن الشرق فى حالته الأولية وخاماته البدائية ، ولكن الأوروبيين نفضوا عنه تراب القدم وزادوا عليه من فكرهم وأضافوا إليه من قدراتهم وأخرجوه ممهورا بإمضائهم ومطليا بشخصيتهم . وهذا فى الواقع عمل كل حضارة من الحضارات . ولا نستثنى منها الحضارة الإسلامية نفسها فى عصورها الزاهرة حيث جمعت ثقافات وحضارات الأمم الأخرى مما صبه الإسلام فى قالبه وجعل منه لونا مميزا وطابعا خاصا .. فلتتخذ الثقافة العربية والإسلامية إذن فى عصرنا الحاضر قدوتها من الإسلام نفسه فى عصره الزاهر . ووسيلتها الفعالة هو سلوك الطريق الذى سلكته جميع الحضارات المعروفة بما فيها الحضارة الإسلامية ، وهى القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق » . ولا يغنى التلخيص والترجمة الدقيقة الشاملة . لأن العرب اليوم بإزاء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية . وكما أن عصر النهضة الذى تلا القرون الوسطى فى أوروبا قام على حركة ترجمة

للمؤلفات الإغريقية ، وكما أن نهضة الثقافة العربية القديمة فى عصورها المجيدة قامت على حركة ترجمة للمؤلفات الهندية والفارسية والإغريقية ، كذلك نهضة الثقافة العربية فى عصرنا الحديث يجب أن تقوم على حركة ترجمة منظمة واسعة شاملة دقيقة أمينة لكل ثمرات النشاط العقلى ونتاج الفكر والوجدان فى الحضارات الكبرى المعاصرة . لأن مجرد صب هذه الثروات الحضارية العظيمة فى لغتنا العربية فيه إحياء وإنماء لهذه اللغة الكريمة التى بها تعيش وترتبط أمم العروبة .

* * *

هذا الكلام كله لم أكتبه اليوم . بل هو مكتوب فى الثلاثينيات ومنشور فى كتابى « تحت شمس الفكر » الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٣٨ ...

٣ ــ الواقع العربى

إذن ما الذى حدث ؟ هل أنا غيرت رأيى فى العروبة ؟ أو أن العروبة التى تغير موقفها ؟.. أما فيما يختص بى فأنا لم أغير شيئا . فشعورى السابق هو نفس الشعور اليوم وغدا . وأما الثقافة العربية فى حاضرها ومستقبلها فهو رأيى دائما بالأمس واليوم وغدا ... فمشاعر التعاطف فى النوائب لم تزل فى القلوب ... والآمال فى نهضة الحضارة العربية لم تزل فى النفوس .. ولكن الذى تغير هى أوضاع الدول العربية . فبعد أن كانت متقاربة فى أحوالها تقريبا من حيث خضوعها كلها لذل الاحتلال وضآلة الاقتصاد إلى حد أن كنا فى شبابنا نسمع فى كل موطن عربى عبارة « كلنا فى الهم شرق » ... أصبحت الدول العربية اليوم مقسمة إلى دول بعضها مشغول

بمضاعفة ثرائه وبعضها مهموم بعلاج إفلاسه . وبعضها مثخن بجروح حروبه . وبعضها يرتع معافى فى أمانة . وبعضها يفكر فى مؤتمرات سلامه وبعضها يفكر فى مؤتمرات بتروله ... وهكذا على الرغم من وجود مشاعر العطف والتعاطف فإن الاهتمامات والمشاغل لم تعد متجانسة ... كما أن الميول والعقائد السياسية لم تعد فى اتجاه واحد ... لذلك كله كان من الواجب على المفكرين العرب أن ينظروا بعمق فى هذا الوضع الجديد للأمة العربية . وإذا كانت أمنا مصر التى أكلتها الحروب المتلاحقة قد احتاجت إلى راحة وإلى سلام ترم فيه قواها المحطمة ورأيت ورأى بعض أبنائها أن تدخل مصحة « الحياد » لتسترد صحتها ففسرت الكلمة البريئة على أنها انعزال وانسلاخ وغير ذلك من الشطط المؤسف فى التفسير ، فلنلجأ إذن إلى الوقائع الملموسة المحسوسة لنلتمس فيها الرأى الصريح.

(أ) ولنبدأ بالجامعة العربية :

هذه الجامعة التى أنشئت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وأوضاع العرب على ما كانت عليه فى ذلك الوقت هل بحثت بعين جديدة هذه الأوضاع الجديدة لدول العرب بما يكفل سيرها فى طريق التضامن الحقيقى نحو السلام والرخاء للأمة العربية جمعاء بالتقارب فى مستوى المعيشة والتجانس فى النظرة والعمل للهدف الواحد ؟؟

(ب) **إذا عقد مؤتمر السلام فى جنيف** .. وحضره بعض الدول العربية ورفض الحضور البعض الآخر فماذا يكون الحل ؟ وإذا حضر الجميع ورفض البعض شروط الاتفاق ، وقبلها البعض الآخر فماذا يكون

الحل ؟ وإذا كانت شروط الاتفاق ترضى البعض وتلائم وضعه ويرفضها البعض دون ضرر مؤكد أو جسيم يلحقه . فهل يرفض الاتفاق كله وينهار السلام ، أو تحقق الأمة العربية فى جدية الرفض وتنظر فى المبررات وفيما هو أعدل : رفض تحرير الجزء ورهنه فى انتظار الكل ؟ أو قبول أى تحرير مع السعى للباق ؟..

(جـ) هل يمكن إنشاء هيئة تحكيم من بين الدول العربية تستطيع أن تنظر بكل عدالة ونزاهة فى التصرفات التى تصدر من أى دولة عربية وفيها ما يعتبر ماسا بكرامة العرب أو خادشا للانتماء العربى ، وليس من الضرورى توقيع جزاءات بل يكفى النصح ولفت النظر ؟ أو أن أى دولة عربية تستطيع أن تفترى كما تشاء فتضر غيرها من دول العروبة أو تضيع عليها مصلحة أو تحول دون حصولها على منفعة أو أمن أو سلام دون مبرر مقبول ؟.. إن مبدأ التحكيم والتصالح معروف ومأخوذ به حتى فى قبائل البدو التى تعيش فى الخيام ؟ إذا لم يكن إنشاء هيئة تحكيم عربية سواء فى صورة محكمة عدل عربية مثل محكمة لاهاى أو على أى صورة أخرى تتيح النظر فى خلافات العرب وتحمى التضامن العربى فلماذا إذن نردد دائما عبارات الوحدة العربية والتضامن العربى ، ولا نفعل شيئا إيجابيا فى هذا السبيل ؟.. هذه هى الوقائع الملموسة والقضايا المحسوسة التى لابد للعرب والجامعة العربية من مواجهتها بشجاعة بدلا من الاجتماعات التى تعقد وتنفض وتبقى الانقسامات على حالها ... فى هذا فليتكلم المتكلمون وليبحث الباحثون واضعين فى اعتبارهم مصر الجريحة المحطمة المحتاجة إلى ترميم ..

كلمة أخيرة .. لا أخرى

هذا هو معنى الحياد الذى أطالب به

لست ممن يحبون الرد على رأى لى إلا فى أضيق الحدود، حرصا منى على أن يكون للرأى المخالف كامل الحرية ، وبذلك نستفيد من عرض كافة الآراء .

ومسألة « الحياد » التى تناولتها ليست مسألتى الشخصية حتى أغضب على من يخالفنى الرأى فيها ، بل العكس هو المطلوب عندى .. وهو أن يتسع المجال لكل الآراء ، حتى تتضح الرؤية من كل الزوايا . لأن المصلحة هنا هى مصلحة الوطن كله .. بل مصلحة العرب أيضا معنا.. ولا غضاضة عندى أن أرجع عن رأى أو أصححه إذا اقتنعت بضرورة ذلك للمصلحة العامة .. ولكننى فى هذه المرة ، وعلى أثر اطلاعى على مقال نشر فى « الأخبار » للأستاذ عبد اللطيف عبد الكريم .. الذى ذكرنى بأسلوبه العف الودود بما يحمله لى العالم العربى من مودة ومحبة ، مما جعلنى أتذكر بالفعل أن كتابا لى يدرس فى مدرسة لدولة عربية شقيقة ، فقلت فى نفسى : ما الذى سوف يقع فى نفوس التلاميذ وما سوف يقوله لهم مدرسهم ؟ أسيقول لهم : « هذا المؤلف لهذا الكتاب الذى تحبونه لا يحبكم ويريد أن ينعزل ببلده عنكم !.. » عندئذ قلت لنفسى : « يا ويلى من تحريف الآراء وانحراف المقاصد؟..» هل أنا قصدت ذلك؟ مرة أخرى

وأخيرة أصيح بملء فمى ، ولن أكررها ، ولن أكتب فى هذا الموضوع مرة أخرى ، لكثرة ما قلت وكتبت وردت كل الأقلام على رأيى الذى ليس هو رأيى .. رأيى مرة أخيرة وأصيح به الآن هو :

إن الحياد هنا هو سياسى وعسكرى محض فى ظرف خاص بالذات : هو هل إذا تقررت حرب تترك مصر لتحارب للعرب ؟.. وهل إذا تقرر سلام يلاحظ فى هذا السلام مصلحة مصر ؟ أو يقال لها اتركى الخصم يحتل أرضك ما دام لم يوافق على مطالبنا كاملة ؟.. هذا هو السؤال الذى يتجنب الإجابة عنه أكثر الذين كتبوا .. ما هو الوضع الحقيقى لمصر بين الحرب والسلام ؟.. ذلك أن مصر ممنوعة منعا باتا من حل مشكلتها إلا إذا حلت مشكلات الجميع .. مع إن مشكلتها هى الأبسط حلا .. وهى مع ذلك — وهو الأمر والأنكى — تتحمل الشتائم والإرهاب والاغتيال إذا هى حاولت أن تجتهد فى حل يرفضه الآخرون من الأشقاء .. كل ما كنا نطمع فيه أن يكون الاجتهاد فى الحل محل أخذ ورد بالحسنى ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ وليس بهذا الذى قوبلنا به .. ثم كيف يكون الحال إذا اتضح أن من بين الأشقاء من لا يريد حربا ولا سلاما .. أى لا يريد حلا على الإطلاق ويتهم بالخيانة من يسعى إلى حل ؟..

هذا وحده هو لب الموضوع .

* * *

أما الرد على الحياد بأنه انعزال فهذا خطأ كبير وربما كان المسئول عنه الكلمة من الجهة القانونية .. ذلك أنى أقول وأردد وسأردد دائما وافهمونى جيدا أيها العرب فى كل مكان :

إن ارتباطنا الاقتصادى والثقافى يجب أن يزداد قوة .. وإنه لهو يوم الحلم الجميل لنا جميعا ، يوم أن يتم التكامل الاقتصادى .. والتناسق الثقافى .. والتعاون الاجتماعى ... بيننا جميعا بما يحقق للعرب الأشقاء هذه الوحدة المثمرة وهذا الترابط الأخوى المفيد لنا كأمة لها مجد قديم .

* * *

إذا شكك أحد فى رأيى هذا .. أو انحرف به ، فالذنب ذنبه ، وليس ذنبى ولا ذنب رأيى .. وأشهد على ذلك ربى وبلدى والعرب الأشقاء أجمعين ..

يجب أن نحدد موقفنا أولًا ..

ترجع الأحداث الأخيرة ، وما يترتب عليها من نتائج إلى مجموعة متشابكة من العوامل أو الظروف .. ترجع فى رأيى إلى اتساع الهوة بين ما يريده وما يأمل فيه الشعب وما تنفذه الحكومة .. وهذا هو أخطر شيء يمكن أن يهدد أمتنا .

ونحن هنا يجب أن نتساءل : ما هى وظيفة نائب مجلس الشعب ؟ هل هى مجرد التمثيل فقط فى المطالبة بحقوق الشعب ؟! أم هى صراخ وتهليل ؟!

مهمة نواب مجلس الشعب فى رأيى أكثر وأكبر من هذا بكثير .. فعليهم أساسا أن يكونوا مرآة حقيقية تعكس آلام ومتاعب ومطالب الجماهير التى يمثلونها .. ولذلك رأى الجمهور أن نوابه فشلوا فى المطالبة بحقوقه .. وتصوير متاعبه . ومن هذا الإحساس قاموا بأنفسهم ليطالبوا بحقوقهم .. ويصوروا متاعبهم بأى صورة من صور الشغب .

* * *

واليوم أصبح لزاما علينا أن نحدد موقفنا .. هل نحن بلد إسلامى أم لا ؟! وإذا كنا كذلك فلماذا نسمح بأى تخريب شيوعى لبلدنا .. وهذه هى مهمة أعضاء مجلس الشعب بكامل أعضائه .. أن يهتموا كما قال شيخ الأزهر بمتاعب الشعب وعكس ما يريده .. وهذا لن يتحقق إلا بالنزول إلى الناس .. ومناقشتهم .. وسماع متاعبهم ..

* * *

ميزانية الدفاع :

● والحل .. ؟!

على الدول العربية أن تتحمل ميزانية الدفاع .. فليس من المعقول أن تتحمل مصر وحدها ميزانية الدفاع عن الوطن العربى كله . فى الوقت الذى لا تعرف فيه بعض الدول أين تنفق أموالها ! إننا هنا نطالب بحقنا ، ولسنا نطلب مساعدة . بل يجب علينا إزاء رفض بعض الدول العربية المشاركة فى ميزانية دفاع مصر .. أن نعيد النظر فى علاقتنا بهم . وهذا لمصلحة مصر فقط .. ولمصلحة شعب مصر وحده .

ترشيد الاستهلاك :

● هذا بالنسبة للحل الخارجى ..

أما الحل الداخلى .. فلن يكون إلا بزيادة الإنتاج مع الجدية فى العمل ولا داعى بعد ذلك لمخاطبة الشعب بالأرقام السرية وغير السرية ، إنما يجب مصارحته بكل الحقيقة وبمنتهى الصدق .

المنبع فى الدين

يسألنى الكثيرون لماذا أخرجت أخيرا هذا المجلد الضخم لمختار التفسير الكبير للقرطبى الجامع لأحكام القرآن الكريم ؟ وإنى أقول بالإضافة إلى ما جاء فى مقدمة هذا الكتاب أن حاجتنا إلى معرفة أصول ديننا وتشريعه فى هذا الوقت توجب علينا الاتصال المباشر بالمنبع . وهذا المنبع هو القرآن الشريف ، وهو محتاج إلى تفسير ، والتفسير يقع فى مجلدات ، تصل عند القرطبى إلى عشرين جزءا . وهى على هذا النحو عسيرة التناول على أكثر الناس .

وحتى عند أغلب المتخصصين تؤخذ عند الحاجة على أنها مرجع أكثر من أن تعتبر كتابا للقراءة المتصلة . ولذلك كان من الضرورى حصر هذه المجلدات العشرين فى مجلد واحد ضخم يجمع بين دفتيه « ما لابد لكل متدين وقارئ للقرآن ولكل راغب فى الاتصال بأحكامه وبلاغته من معرفة منبعه وفهمه لكثرة استعماله وجريانه على الألسن ، وخاصة فى أيامنا هذه التى ظهرت فيها الرغبة على أشدها فى الرجوع إلى مصادر الدين » .. بل أيضا فى الوقت الذى كثر فيه الحديث عن الشريعة الإسلامية والرجوع إليها كمصدر للتشريع .

فمن منا إذن لا يريد أن يعرف من واقع المنبع الأصلى حقيقة ما جاء خاصا بالقصاص والقتل والسرقة والربا والخمر والزنا ورشوة الحاكم

والحكم والتجارة . وفى الصلاة والزكاة والحج والعمرة والشك والإيمان والقدر والحذر والحكم لغير المسلمين وحق الفقراء والمساكين والتوبة والصدقة والزينة والمأكل والمشرب والفنون التشكيلية والنظر إلى الكون والتدوين للعلوم بالكتابة وفى خلافة المرأة وفى تبرج النساء وفى المساواة فى الرزق وفى أن أمرهم شورى وفى الزواج والطلاق وفى القلم والعقل والعلم والعلماء .. الخ . ونحو ذلك كثير مما يدل على أن الدين قد تناول ما يجرى فى حياتنا الإنسانية تناولا شاملا .

* * *

على أن أهم ما نجده فى هذا المرجع للمنبع هو هذه المناقشات ومختلف التفسيرات لهذه الأحكام بين جلة العلماء وأئمة المفسرين ، حيث تتجمع الآراء وتختلف وتتفق وتفترق ، وكأننا فى مجلس من المجالس التشريعية التى تناقش فيها القوانين والأحكام على الملأ . مما يطلع القارئ على كل جوانب القضية وعلى عديد الحجج ، كما يؤكد له أن كل قضية من القضايا وكل حكم من الأحكام قد نوقش بحرية فى الرأى تثير العجب وسعة فى العلم وقوة فى الحجة تثير الإعجاب .

* * *

كل هذا مما جعلنى أقتنع بضرورة الرجوع إلى المنبع للخروج بحصيلة من الحقائق المباشرة عن الدين من منبعه دون تدخل أو وساطة من وصف أو تعليق . وهذا ما حرصت عليه كل الحرص بعدم تدخل بحرف واحد فى

هذا المختار لتفسير القرطبى الكبير لأحكام القرآن .

ولقد كنت من مبدأ الأمر أريد استخراج هذا المختار لنفسى رغبة منى فى الاستعانة به على الوصول إلى الاقتناع من واقع الأصول وحدها . ولكنى وجدت من المنفعة العامة أن أشرك معى غيرى فى الانتفاع من هذا المورد الميسر . ولعلى بهذا أكون قد أجبت عن سؤال السائلين .

فقه الشريعة : بين الجمود والتغيير

تعقيبا على المقال المهم للعالم الدينى الجليل الشيخ الدكتور عبد المنعم النمر ، المنشور فى الأهرام بعنوان : « على أبواب تقنين الشريعة » ، وأثار إعجاب الكثيرين من المستنيرين، واستيضاحا لما نبحث فيه اليوم من وجوب تطبيق أحكام الفقه الإسلامى فى قضائنا ، خطرت لى أسئلة عن منشأ هذه الأحكام الفقهية الإسلامية فى المجتمع الذى ظهرت فيه أول مرة ، والمسار الذى سلكته هذه الأحكام من مبدأ العمل بها إلى ما انتهت إليه اليوم .. وهل هى قد زالت كلها تماما فى مجتمعنا الحاضر ؟.. أو بقى منها شيء .. ففى القانون المدنى ماذا أبقى ؟.. وماذا أهمل ؟.. وكذلك فى القانون الجنائى والقانون التجارى ؟.. كل ذلك لابد فيه من إحصاء دقيق واضح تحت نظرنا ، حتى لا تلوك الألسن بما تتناقله الإشاعات والشعارات ، بعيدا عن أسس العلم اليقينى ، والأمانة العلمية التى كان يعرفها ويمارسها السلف الصالح فى عصور الإسلام الزاهرة .. ومعاونة منى فى التمهيد لهذه البحوث ، أعرض فيما يلى بعض أمثلة لجرائم يتحدث اليوم عنها الناس ، ولا يعرف أكثرهم منشأ العقوبة فيها :

فى السرقة :

ففى جريمة السرقة مثلا وعقوبتها ، كما جاء بها القرآن الكريم ، فى الآية

الشريفة من سورة المائدة ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ .. كيف كان مصدرها ؟.. إذا رجعنا إلى كتب التفسير ، وعلى وجه التحديد تفسير القرطبى ، وجدنا ما نصه : وقد قطع السارق فى الجاهلية وأول من حكم بقطعه فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، فأمر الله بقطعه فى الإسلام .. فكان أول سارق قطعه رسول الله ، ﷺ ، فى الإسلام من الرجال الخيار بن عدى بن نوفل بن عبد مناف .. ومن النساء مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بنى مخزوم .. وقطع أبو بكر يد الرجل اليمنى الذى سرق العقد (عقداً لأسماء بنت عميس زوج أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقطع يده اليسرى) ..

والسؤال هنا هو : هل الواقعة تسبق التنزيل ؟.. بمعنى أن واقعة كواقعة السرقة حدثت فى المجتمع الجاهلى وعوقب عليها بقطع اليد ، ثم حدثت الواقعة فى المجتمع الإسلامى ، فأخذ بنفس العقوبة ، فهل لنا عندئذ أن نفهم أن التنزيل يأتى بعد وقوع الواقعة ، تأييداً أو تعديلا ، تبعا لمقتضى الحال ...؟

فى الزنا

كذلك فى جريمة الزنا ، نزلت الآية بقوله تعالى : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ .. ولم يأت ذكر للرجم .. ولكن ، فى صحيح مسلم ، عن البراء بن عازب قال : مر النبى ﷺ بيهودى محمما (أى طلا وجهه بالفحم) مجلودا ، فدعاهم (أى دعا من مع المجلود من اليهود) وسأله : « هكذا تجدون حد الزانى فى

كتابكم » ؟.. قالو : نعم .. فدعا رجلا من علمائهم فقال له : « أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم » ؟.. قال : لا .. ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إن أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم » .. فقال رسول الله ، ﷺ : « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » فأمر به فرجم ..

* * *

وجرى فى هذا كلام كثير عن الحكم الذى ينزل به القرآن ، وتأتى سنة الرسول بحكم آخر .. وليس هذا موضوعنا هنا .. إذ ربما كان من الممكن القول أن الله يعتبر الكتب السماوية كلها نابعة منه تعالى .. وإذا كان الرجم قد جاء فى التوراة ، ولم يجيء فى القرآن ، فهو على كل حال مما جاء به كتاب سماوى ، وهو ما ذكره النبى الكريم بقوله : « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » .. ولكن موضوعنا الأساسى هنا هو أن شريعة الله فيما رأينا لا تنزل فى فراغ ، إنما هى تنزل فى قضية طرحت فى واقعة حدثت .. وعندئذ جاز لنا أن نبحث فى الفترة بين حالتين : حالة وقوع الحادثة وطرح قضيتها ، وحالة نزول الآية بالحل المؤيد أو المعدل .. فإذا كان الأمر كذلك فمعناه ومغزاه أن الله تعالى يترك لرسوله وللناس فترة يفكرون فيها لأنفسهم بأنفسهم من واقع ظروف حادثتهم ومقتضيات حياتهم قبل أن ينزل لهم الآية بالهداية ...

* * *

وعندئذ يكون هذا درسا لنا بأن الله ، سبحانه وتعالى إنما خلق لنا عقولا لنفكر بها فى شئون حياتنا ، خاصة والقرآن يحض الناس على أن يفكروا بأنفسهم لأنفسهم ، وينهاهم عن اتباع ما عند أسلافهم اتباعا أعمى ، دون تفكير ..

إذن أحكام الله لم تنزل سابقة للواقعة ومفروضة فرضا مسبقا لقضية لم تطرح ، بل هى تنزل بعد حدوث الواقعة ، وطرح القضية ، وإتاحة الفرصة والوقت للناس ليفكروا فيها ويستنبطوا الحلول الملائمة لظروف حياتهم ...

وليس لهذا صلة طبعا بمسألة الإرادة الإلهية المكنونة فى الغيب الذى يعلمه الله ، ويقع فى تقديره منذ الأزل ...

فهذه مسألة أخرى ليست هى مسألتنا الآن .. إنما المسألة هنا تتعلق بأحكام الفقه الإسلامى وتفكير الناس .. وإرادة الله تعالى فى أن يترك لعباده فترة اختيار يجتهدون فيها طبقا لعقولهم الحرة .. فهل الأمر يجرى على ذلك ، أو على غير ذلك ؟.. هذه مسألة مهمة وخطيرة ، ليس من حقى البت فيها ، ولكن من واجبى طرحها لبحث الباحثين من فضلاء علماء الدين وأصحاب العقول المستنيرة من المؤمنين ، لأن عليها تعتمد قضية الاجتهاد للملاءمة بين فقه الشريعة وأوضاع المجتمع المتحرك فى زمان جديد وظروف جديدة ..

وترتبط بقضية الاجتهاد قضية الثابت والمتغير فى أحكام الدين .. والسؤال عندئذ هو أين يكون موضع الثبات ؟.. وأين يكون موضع التغير ؟.. ولكى نتمكن من الإجابة يحسن أن نقسم الإسلام إلى قسمين :

الإلهيات وهى علاقة الإنسان بالله تعالى .. والإنسانيات ، وهى علاقة الإنسان بالإنسان.فالقسم الأول وهو الإلهيات لا ريب فى أنه ثابت أبدا ، ثبات الإيمان بالله تعالى الثابت الوجود فى كل زمان ومكان ..

أما القسم الثانى ، وهو الإنسانيات ، فإنه يتحرك بتحرك الإنسان ، ويتغير بتغير مجتمعه .. ويسرى عليه قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ...

ومن هنا تنشأ القضية التى يتحتم علينا بحثها اليوم ، ويطرح السؤال الذى يتطلب الإجابة عنه فى وقتنا الحاضر ، وهو : هل الأحكام المتعلقة بالإنسانيات وكانت تلائم الإنسان فى زمن معين ، وفى مجتمع بالذات يمكن أن يغيرها الإنسان بما تلائمه فى زمن آخر ومجتمع آخر ؟!.

ويرتبط بموضوع الملاءمة ، والأخذ بما لم يكن موجودا فى الأصل ، ما جاء فى القرآن الكريم نفسه من كلمات لم تكن من لغات العرب ، مثل « قسورة » ، أى الأسد بلغة الحبشة ، و « القسطاس » ، أى الميزان بلغة الروم ، و « السجيل » ، أى الحجارة والطين بلغة الفرس .. ونحو ذلك .. وقال فى هذا بعض الأئمة أن حقيقة الأمر هى أن هذه الكلمات فى الأصل أعجمية ولكن العرب استعملتها وعربتها ، فهى عربية بهذا الوجه .. ومعنى ذلك أن الله تعالى يقر أن ينتفع الإنسان العربى بما يلائمه ويصلح له عند غيره من الأمم فى اللغة وغيرها .. وهذا ما حدث أيضا يوم أخذ النبى ، صلوات الله وسلامه عليه ، عن الفرس حفر الخندق فى غزوة الخندق ... أى أن الشىء المستورد من بلاد وشعوب أخرى مقبول الأخذ به إذا كان صالحا ونافعا للمسلمين ...

إذا كان الأمر كذلك ، فقد انتفت عن المجتمع الإسلامى تهمة الجمود والعجز عن ملاحقة ركب الحضارة والتقدم فى عالمنا المتحرك بكل جديد يفيد الإنسانية .. كما ينتفى الرأى القائل بأن المسلمين وعلماء الإسلام يحبسون أنفسهم وتفكيرهم داخل نصوص جامدة .. كما ينتفى الزعم بأن الإسلام متخلف عن الركب ، مع أنه فى جوهره صالح لكل زمان ومكان .. وهذا الصلاح فيه لكل زمان ومكان ، إنما يأتى من كونه يتسع لاحتواء كل ما يصلح به حال الناس ، تاركا للناس تقدير ظروفهم ، كما قال لهم رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ذات يوم : « أنتم أدرى بشئون دنياكم » . والله أعلم ...

يا ضرائب قولى لى .. رسالة أم مهنة ؟

الناس تعتبر عمل الكاتب والأديب رسالة ، وأنتِ أيتها الضرائب العزيزة تعتبرينها مهنة .. وكاتب الأدب حائر بينكما .. لا يدرى أهو صاحب رسالة ، وفى هذه الحالة يستجيب إلى كل من يطالبه بنتاج قريحته فى صورة أحاديث إذاعية أو صحفية أو تلفزيونية دون أن يتقاضى مليما ، باعتبار أن عمله يعتبر رسالة واجبة لإنارة العقول والنفوس للكافة ، ولكنك أنتِ أيتها الضرائب العزيزة تريدين منه أن يكون صاحب مهنة حرة مثل الأطباء والمحامين والمهندسين والحاسبين وغيرهم . ومعنى ذلك أن من واجبه أن يتصرف مع الناس كما يتصرف الطبيب والمحامى والمهندس والمحاسب .. أى أن يفعل كما يفعل الطبيب مثلا عندما يأتى إليه مريض ويطالبه بمحادثة أو مناقشة أو استشارة طبية مجانية لوجه الله وللرسالة التى يحملها ، أى رسالة الرحمة والإنسانية .. ولا شك أن مثل هذا المريض سوف يقابل عند باب العيادة بممرض يقول له : ادفع أولا .. فليس عند الدكتور الطبيب وقت للدردشة .. فهنا مهنة حرة تحاسبنا عليها الضرائب .. وكذلك الحال مع المهندس والمحامى والمحاسب .. وهذا أيضا ما كان يجب أن يكون مع الكاتب والأديب ، لولا أنه ليس لديه ممرض ولا وكيل محامى ولا بواب .. والأدهى والأمر أن الذى يأتى ليأخذ وقت الكاتب الأديب وفكره ينشر ذلك الإنتاج فى صحيفة أو مجلة تبيع

نسخها بالنقود .. فإذا طالب هو أيضا بأجر صاحوا فى وجهه : عيب يا أستاذ أنت صاحب رسالة .. هذا فيما يتعلق بالصحافة والإذاعة والتلفزيون من حيث الأحاديث .. أما من حيث الإنتاج الفنى فى صورة قصص وتمثيليات ، فإن الأجهزة الرسمية الحكومية تتاجر بعمل المؤلف المسكين ، فتأخذ عمله بأبخس الأثمان وبعقود إذعانية من موقع قوة ، ثم تبيعه لدول أخرى خارج القطر بألوف الجنيهات وأحيانا بمئات الألوف من العملات الصعبة ، دون أن تتكرم على المؤلف المسكين بنصيب زهيد .. وهو ما لا يمكن أن يحدث مثله لطبيب أو مهندس أو أى فئة أخرى من الفئات التى حشر المؤلف المسكين فى زمرتها .. فأنت أيتها الضرائب العزيزة الكريمة لا تفرقين بين هذا وذاك وكله عندك مهنة حرة .. فى حين أن الكاتب الأديب لم يزل دائما فى نظر الناس صاحب رسالة مجانية يجب أن يترفع عن أخذ أجر على مجهوده .. وعليه أن يتعامل مع الخباز والجزار والأسرة والأبناء كأنه من الملائكة التى تعيش بغير طعام وثياب وسكن وأنا — وأقسم بالله العظيم أيتها الضرائب العزيزة الكريمة — لو كنت معفى من الطعام والشراب كالملائكة لما تقاضيت مليما فى نظير أى جهد أبذله .. وأقسم أيضا . بما لك عندنا من إعزاز وإكرام ، إنك لو تفضلت بإعفائنا من أى ضريبة واعتبرت أننا أصحاب رسالة لا أصحاب مهنة لقمت من فورى باعتبارى صاحب رسالة حقا وفتحت عقلى وقلبى لأمنح كل ما فيهما بالمجان للشعب كافة .. ولكن ما دمت تعتبريننى

صاحب مهنة كبقية أصحاب المهن الحرة من أطباء ومحامين ومهندسين ومحاسبين .. بل أيضا من سباكين ونجارين وحدادين ، فلا يلمنا أحد إذا طالبنا بأجر مثل غيرنا من هؤلاء المحترمين الذين يتقاضون الأجور على مجهوداتهم .. والسلام على من عذرنا ورحمنا ... ونشهد الله تعالى أرحم الراحمين .

هل الجمهور هو الذى يحدد ملامح المسرح

أم المسرح هو الذى يحدد ملامح جمهوره ؟

قبل بداية عروض مسارح هيئة المسرح التى قدمت أعمالها مجانا إلى الجماهير : أذيعت كلمة « يوم المسرح العالمى » التى كتبها هذا العام الحكيم .

المعروف أن مصر تشارك العالم هذا الاحتفال منذ ١٥ عاما بعد انضمامها إلى هيئة المسرح العالمية ومقرها باريس والتى تضم ٣٨ دولة .

وفيما يلى نص كلمة الأديب الرائد الحكيم :

اليوم ، فى هذا العيد العالمى للمسرح ، يطيب لكل محب لهذا الفن أن يتأمل فيه كما يتأمل الإنسان فى يوم عيد ميلاده ما موضعه من الحياة ؟ وما الذى كان فى غابر أيامه أو ماذا سيكون غدا ؟.. وما القضية التى تشغله فى حاضره ؟.. ولعل ما يجب التأمل فيه اليوم هو الجمهور ، هل الجمهور هو الـــذى يحدد ملامح المسرح ؟ أو أن المسرح هو الـــذى يحدد ملامح جمهوره ؟.. بعبارة أخرى هل المسرح هو الذى يؤثر فى المجتمع أو أن المجتمع هو الذى يؤثر فى المسرح ؟.. أو أن كلا منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر ؟..

إذا اعتبر حال المسرح يشبه حال السلعة فى السوق ، فهو يخضع عندئذ لقانون العرض والطلب ، فيعرض ما يطلبه المشترى . وعندما كان

المشترى نوعا من المثقفين ، كان المعروض فى المسرح نوعا من الثقافة ... فإذا تغير هذا النوع من المشاهدين وأصبح الغالب من طلاب المتعة السهلة ، اتجه المسرح إلى تقديم كل ما يمتع هذا النوع من الجمهور .

وقد لوحظ بالفعل فى وقتنا الحاضر ظهور نوعية جديدة من الجماهير نتجت عن اتساع رقعة السياحة بتقدم وسائل المواصلات فى العالم ، فأصبحت أيضا للسياحة مؤثراتها فى نوعية العرض المسرحى ، لأن الكثير من السائحين يطلبون تمضية لياليهم فى المتعة السهلة ، كما ظهرت نوعية مماثلة من طبقة اجتماعية جديدة لأثرياء جدد لديهم المال الوفير والتثقيف القليل ، يطلبون هم أيضا قضاءِ لياليهم فى هذا النوع السهل من المتع .

ولهذا تلون المسرح فى كثير من بلاد العالم بهذا اللون المرغوب عند هذا النوع من الجماهير ، لون من العروض المسرحية يمتزج فيها الرقص والغناء والنقد الاجتماعى المضحك وبعض الإيحاءات السياسية المثيرة والشخصيات الهزلية الشهيرة ، فى إطار من التشويق يريح الأعصاب ، ولا يترك فى الذهن أثرا .

على أن بعض البلاد اشتهرت برسوخ تراثها المسرحى الخالد على الزمان ، وبامتداد هذا التراث فى إنتاج حديث له من القمة الأدبية الكبرى ، ما يجعل المشاهدين الجدد ، من سائحين أو من طبقات ثرية جديدة ، تسعى إليه أيضا لإشباع فضولهم أو استكمال تثقيفهم .. فقد اهتمت هذه البلاد بالعناية بهذا المسرح باعتباره الصورة المشرفة لحضارتها ومكانتها التاريخية .

إذن ، نحن أمام وجهين للمسرح ، يجب أن يكون لكل منهما دوره فى

كل مجتمع حديث .. الوجه الذى يمثل المتعة الجادة والقيمة الباقية للمشاهد الراسخ ..

وبمعنى آخر ، الوجه الذى يعبر عن الظروف الوقتية المتغيرة ، والوجه الذى يعبر عن الإنسانية فى قيمها الثابتة فى كل زمان ومكان . وهذا الوجه الآخر فى ثباته وعمقه هو المنوط به قيادة المسرح نحو الأنفع والأرفع والتأثير فى الوجه الثانى الوقتى . ليرفع مستواه ويضيف إلى إمتاعه عمقا وفكرا .. كما أنه بما له من جذور ممتدة فى أغوار التراث الإنسانى الباقى ، تقع عليه مسئولية بناء الإنسان بقيمه الباقية واستمرار التقدم بالحضارة الإنسانية .

وهذه التبعات الجسام ، هى ما تدعو إلى الاحتفال بيوم المسرح العالمى فى كل عام .. وكلنا أمل أن تزداد قدرة المسرح على أداء رسالته النبيلة فى تقدم الإنسان والإنسانية عاما بعد عام ..

المنبـرة

يطيب لى دائما السير على الأقدام فى الصباح ، خاصة فى فصل الشتاء وعلى رأسى «البيريه» أو القلنسوة بالعربى الصحيح. وفى يدى عصاى أتوكأ عليها وليس لى فيها مآرب أخرى كمآرب موسى عليه السلام ، ولا ألقى بها فإذا هى حية تسعى ، ولا أهش بها على غنمى . فأنا ليس عندى غنم أرعاها ، ولا سحر أفحم به السحرة المرتزقة .. إنما هى عصا تنفعنى فى طرقات مملوءة بالحفر ، كما تنفعنى « البيريه » فى أجواء ملبدة بالغيوم ... وفى ذات صباح قريب وأنا أمشى على كورنيش النيل سمعت حديثا أو على الأصح حوارا بين اثنين ، خلته أول الأمر بعيدا عنى . وإذا بى أجده قريبا منى ، بل ملتصقا بجسمى .. وجعلت أصغى .. عجبا !.. إنه حوار عجيب بين « البيريه » التى على رأسى والعصا التى فى يدى . لم أتابع بالطبع الحوار من بدايته ، لذلك التقطت عبارة « البيريه » وهى تقول للعصا :

— نعم . لابد أن أطالب أنا أيضا بمنبر ..

وردت العصا :

— أنا أحق منك بالمنبر ..

وارتفع صوت البيريه فى احتجاج :

— أحق منى .؟! ولماذا أحق ؟.. أنا الأحق لأنى أنا الموضوعة فوق

الرأس ... الرأس الذى يفكر .. أما أنت فمغروسة فى وحل الشوارع ...

ــ فعلا .. ولكنى أمشى فيه وأعرف طريقى ... وأتكلم ... نعم أنا الذى يتكلم .. وكلامى ملأ كتابا .. ألا تعرفين كتاب « عصا الحكيم » ؟!. ولكن دلينى أنت على كتاب باسم « بيريه الحكيم » ؟

وعندئذ دخل فى هذا الحوار بين الاثنين صوت ثالث ... صوت أجش النبرة يقول :

ــ إذا كان على الكتب فأنا قد ظهر باسمى أكثر من كتاب ... ألم يسمع أحد منكما عن كتاب « حمار الحكيم » ؟!

فما تمالك الاثنان « البيريه » والعصا من الصياح فى وقت واحد :

ــ حمار !! ما شاء الله !.. ما كان ينقصنا إلا هذا !!.. لعلك أنت أيضا أيها الحمار جئت تطالب بمنبر !!..

فأجاب الحمار متحديا :

ــ ولِمَ لا ؟. أليست لى أنا أيضا آراء ؟!. آراء منشورة فى الكتب !!.

واتحدت العصا مع « البيريه » فى صوت واحد :

ــ إذا دخل الحمار معنا فى المنابر فإنه سيفسد علينا كل شىء .. يكفى أن يكون معنا حمار !..

فقال الحمار :

ــ ولماذا الخجل منى ؟!.. أليست العبرة بالأفكار ؟!..

فقالت « البيريه » والعصا :

ــ نعم .. ولكن عندما تخرج الأفكار من أناس محترمين !.

— وهل أنا غير محترم ؟! وهل الاحترام وقف على من يجلسون فوق الرؤوس ، ويلوحون بالعصى ... أنا الذى على ظهرى كل الحمل ... من الذى يعبر عن أفكارى ؟.. العصا أو البيريه ؟!

وارتفع صوت البيريه والعصا :

— طبعا ..

وثار الحمار :

— بأى حق ؟!. بأى حق تتكلمون باسمى ، وتتحدثون عنى وتتاجرون بصوتى ...

— أتتحرش بنا ؟.. مالك ومالنا تحشر نفسك فينا ؟!..

— أنا الذى حشرت نفسى فيكم ؟! أو أنتم الذين تحشرون أنفسكم فى شخصى المتواضع .. وساعة الركوب أجدكم دائما فوق ظهرى .. أما ساعة الأكل ...

— كفاية !... كفاية !... نعطيك المنبر .. على شرط أن لا تنهق ...

— مفهوم !.

— وعلى شرط أيضا أن يكون صوتك نغمة ...

— فاهم ... نغمة سيكا أو نهاوند ... المهم منبرونا ...

— « منبرك » ؟!.. ما هذه اللغة ؟!.

— لغة فصحى ... فعل جديد ؟ منبر يمنبر منبرة ..

— « منبرة » ؟!.

— أى نعم .. منبرة على وزن منبدرة ..

ونظرت « البيريه » إلى زميلتها العصا :

— قلنا الحمار سيجلب لنا المتاعب !

وسمع الحمار وقال :

ــ أبدا والله !.. أنا حسن النية وقلبى طيب ..

وقالت العصا والبيريه :

ــ ندخل فى الجد .. عندما تنال المنبر .. أو حسب لغتك الجديدة الفصحى إذا أنت « تمنبرت » فماذا أنت صانع ؟

ــ أمهلونى حتى أفكر ..

ــ نمهلك ... لك أسبوع ..

ــ وهو كذلك ... موعدنا إذن الأسبوع القادم ..

الصنفنة

لم أرد التدخل فى ذلك الحوار القائم بين « البيريه » التى على رأسى والعصا التى فى يدى والحمار المنتسب إلى شخصى ...

ولكن الاهتمام بحديثهم ازداد عندى . خاصة وقد وعد الحمار بأن يأتى هذا الأسبوع ليقول ماذا هو صانع إذا « تمنبر » أى حصل على المنبر الذى طالب به ... ومعنى هذا فى عرف السياسة هو تقديم « البرنامج » ولكن الحمار جاء ليعرض مسألة أخرى هى « التصنيف » قائلا للزميلتين :

ـــ لقد وعدت بالتفكير فيما أنا صانع إذا تمنبرت ، ولكن فاجأنى سؤال طرحته على نفسى : من أنا ؟ وماذا أمثل ؟ ومن أى فئة أتكلم ؟..

فقالت البيريه وزميلتها العصا :

ـــ مفهوم . تقصد التصنيف .. تريد أن تتصنف ..

ـــ طبعا . أريد أن أعرف هل البرنامج بعد التصنيف أو التصنيف بعد البرنامج ؟..

ـــ وأنت ما رأيك ؟

ـــ رأيى أن التصنيف أولا .. لأن البرنامج ينبع من نوع الصنف وميوله ومصلحته .. لابد إذن من « الصنفنة » !

ـــ عظيم .. إذن صنف نفسك !..

ـــ تفضلوا أنتم أولا بتصنيف أنفسكم ..

ــ أنا « البيريه » الموضوعة على الرؤوس أمثل أهل الرأى ..

ــ وأنا « العصا » التى فى اليد أمثل أهل القيادات ..

ــ وأنا « الحمار » الذى يحمل على ظهره أمثل أهل العمل ..

ــ معقول ... إذن كل منا له منبر يمثل الثلث ..

ــ لا .. انتظروا من فضلكم .. أنا الذى أمثل العمل لى وحدى النصف وليس الثلث .. أنا صاحب الخمسين فى المائة للفلاحين والعمال ..

ــ فهل أنت فلاح أو عامل ؟.. وضح لنا أيها الحمار ؟..

ــ أنا عندما أشتغل فى الريف فأنا فلاح وعندما أشتغل فى المدينة فأنا عامل ..

ــ ما هذه الحسبة ؟ أنت واحد فرد تصبح اثنين ؟! هذا شيء عجيب حقا .. أهو حساب جديد أيضا ؟!..

ــ نعم .. حساب العدل الاجتماعى ..

فنظرت البيريه والعصا كل منهما إلى زميلتها قائلتين :

ــ هذا الذى نقول عنه حمار !!!

ــ نعم .. أنا حمار ولا فخر !.. ولكن لاحظوا أن كثيرين من أهل الرأى حمير ..

فقالت « البيريه » فى احتجاج :

ــ من فضلك حسن ألفاظك !..

ــ ألفاظى حسنة ودقيقة . وأنا أقصد بالضبط أن العمل الذى أمثله يدخل فى بابه أيضا العمل الذهنى إلى جانب العمل اليدوى .. وإذا كان

العامل اليدوى يكدح فإن العامل الذهنى يعتبر كذلك أحيانا من الكادحين ..

فاطمأنت « البيريه » ورضيت وقالت :

— هذا كلام طيب .. إن الحركة الذهنية لا تقل مشقة عن الحركة اليدوية .. ولذلك أرحب أن أعتبر نفسى ..

— من فئة الحمير ..

وهنا صاحت العصا قائلة للحمار :

— ما شاء الله ! تريد أن تجر زميلتى إلى صفك ؟!..

وتدخلت « البيريه » معقبة :

— فى الواقع أن ما يقوله زميلنا

— زميلنا ؟!..

— نعم يا عزيزتى العصا ولم لا ؟!. إنى أشعر أنى أكدح مثله وأنى أحيانا مهضومة الحق مثله ..

— ولكنك يا عزيزتى « البيريه » لا تمانعين فى اعتبار نفسك أحيانا من فئة القيادات !..

— لأعاونك برأيى فى اجتياز الطرق المعوجة وعلى حسن السير بين حفر الشوارع ..

— وكذلك لتعتمدى على قوتى فى بلوغ هدفك ...

— هدف ؟!.. وما هو هدفى ؟!.

— أنت أدرى به .. ولكن أعلم أنك من قديم تعتقدين أن الرأى المقترن بالقوة خير من الرأى المجرد .. ولهذا كانت زمالتنا الطويلة ...

ـــ نعم .. كى أدرأ الخطر عنك وعنى .. خوفا من أن تنزلينى إذا تركتك تسيرين وحدك فى الشوارع المملوءة بالحفر ، على غير هدى من توجيهى ..

ـــ وما الذى تغير اليوم كى تتركينى وتنضمى إلى هذا الحمار ؟!

ـــ فصاح الحمار قائلا :

ـــ مهلا مهلا .. هذا الحمار لم يعد اليوم يطيق أن تنخسيه أيتها العصا !.. ألا تعرفين المثل الشائع : « إن كثرة النخس تعلم الحمار الرفص » ..

ـــ أنا اليوم لا أنخسك ولكنى أخدمك ...

فقالت « البيريه » :

ـــ ومن علمك أيتها الزميلة ووجهك إلى خدمته ؟..

ـــ على كل حال نحن يا عزيزتى اليوم نتعاون كلنا لنخدمه ..

ـــ إذن لا تلومينى على الانضمام إليه والوقوف فى صفه ..

ـــ أنا لا ألومك على هذا ، ولكنى ألومك على تركى والانتماء إليه .. ألا تعرفين أنى أنا أيضا يهمنى الحمار .. إنى من قديم ملتصقة به .. إن العصا والحمار لا يفترقان .. صحيح فى الماضى كان بيننا تناقض ، أما اليوم فبيننا تعانق .

ـــ هذا بفضل توجيهاتى ..

ـــ فليكن ... المهم هو أن أهدافنا وبرامجنا يجب أن تكون واحدة وهى خدمته ومصلحته والارتفاع بمستواه

ـــ وهل لنا هدف آخر غير خدمة عزيزنا الحمار .. إنه منا ونحن

منه .. وسيكون أنشودتنا الجميلة فى كل البرامج ..

— فعلا .. إن عزيزنا الحمار ..

فابتسم الحمار قائلا :

— عزيزنا !!. سبحان الله !!!

فقالت « البيريه » والعصا فى نفس واحد :

— أتشك فى ذلك ؟! ثق أنك منا ونحن منك ..

— من الحمير !!.

— ولِمَ لا أيها العزيز ؟!

— الله أكبر ... الكل اليوم يتسابق إلى « الحمرنة » !

— ونِعْم بالحمرنة !.. إنها شعار العمل الصامت والصدق والحقيقة ..

— الحقيقة ! أين هى الحقيقة ؟!

— عجبا زميلنا الحمار !.. الجميع اليوم يتكلم عن الحقيقة ويبحث عن الحقيقة .. منذ أن ظهر كتاب يدعو إلى فتح الملفات ، للبحث عن الحقيقة !.. ألم تسمع عن هذا الكتاب !..

— أى كتاب ؟!

— كتاب اسمه ؟.. اسمه « عودة .. » عودة ماذا يا زميلتى العصا ؟!..

— أظن أن اسمه .. المهم يا زميلتى البيريه إنه يدعو إلى فتح الملفات .. ومنذ ذلك اليوم والملفات كما نرى تفتح كل يوم فى كتب لا أول لها ولا آخر ..

ـــ والعجيب يا زميلتى العصا أنه بفتح الملفات قامت حرب يمكن تسميتها « حرب المستندات » مثل « حرب الصواريخ » فكما توجد صواريخ ، وصواريخ مضادة ، كذلك ظهرت مستندات ، ومستندات مضادة !..

فهز الحمار رأسه وقال :

ـــ إذن هذا يعنى أنه توجد حقيقة ، وحقيقة مضادة !. أما كلمة الكذب أو كلمة « التزييف » فلا لزوم لهما . جرى حذفهما من

البرمجة

دخل الحوار بين العصا ، والبيريه ، والحمار ، فى مسألة المنابر ، إلى الدرجة التى تقتضى أن يعلن كل طرف عن برنامجه ...

وافتتحت البيريه الحديث بقولها :

— الآن وقد تمنبرنا وتصنفنا بقى علينا أن نتبرمج ..!

فالتفتت العصا إلى الحمار قائلة :

— برمج نفسك يا عزيزنا المحترم ...!

فقال الحمار بتواضع :

— برمجوا أنفسكم أولا .. إن لكم الأولوية باعتباركم أقدم منى فى الاحترام ... فأنا لم أظفر بعزتكم واحترامكم إلا منذ قليل ...

فقالت البيريه :

— برنامجى واضح ... فأنا باعتبارى أمثل الرأس ، أى الرأى ، فسأطالب فى الحال بمحو أميتك ...!

فقال الحمار :

— أشكرك ...

وقالت العصا :

— وأنا باعتبارى أمثل القيادات فسأعمل فى الحال على الارتفاع بمستوى زريبتك ، أقصد قريتك ... سأدخل فيها التلفزيون الملون ...

ـــ جميل !.. وماذا عن الأكل ؟!

ـــ اطمئن يا حمارنا العزيز .. سنزيد لك كمية العلف والعليق ...

ـــ بكم ستكون كيلة الفول والذرة ...؟

ـــ هذا موضوع اهتمامنا الأساسى ...

ـــ شكرا .

وعندئذ قالت « البيريه » ومعها العصا :

ـــ والآن قل لنا ما هو برنامجك أنت ؟

فقال الحمار :

ـــ وهل تركتم لى شيئا أبرمجه ؟!... إن كل برامجكم هى عنى وعن مصالحى باعتبارى محور اهتمامكم الأساسى !. فماذا أقول ؟.. إن برنامجى هو برنامجكم ...

ـــ طبيعى ... وهل لنا شغل وشاغل إلا أنت ...؟

ـــ معنى هذا إذن أنى أنا الذى شغلتكم ... وبدونى لن يكون عندكم شغل !

ـــ طبعا .

فسرح الحمار بخياله قليلا ، وقال :

ـــ افرضوا فرضا ... مجرد فرض أنى غير موجود ..

ـــ ماذا تقصد ؟!

ـــ أقصد أنى غير موجود بمطالبى واحتياجاتى ... فلا فقر ولا بؤس ولا متاعب ولا مشاكل ... ماذا يحدث لكم ؟!

ـــ كارثة ...!

ــ مصيبة ...!

فابتسم الحمار وقال :

ــ كارثة ومصيبة لكم أن لا تكون عندى متاعب ومشاكل ومطالب ؟!.. طبعا !.. لأنه لن يكون عندكم شغل !.. ستصبحون عاطلين !.... لن تكون هناك برامج ولا مذاهب ولا مبادئ ... فأهل القيادات لن يجدوا من يقودونه ... وأهل الرأى لن يجدوا من يواجهونه .. ماذا ستفعلون فى هذه الحالة ...؟!

ففكرت « البيريه » لحظة ، ولكن العصا أسرعت تسعفها :

ــ إذا كان الحمار يظن أنه بهذا يلغى وجودنا فهو واهم ... إن الحل بسيط ... أنا العصا سأعود إلى ضربه ...

ــ وأنا « البيريه » سأعود إلى حمايته ...

ــ وانا « الحمار » سأعوذ موضوعكم من جديد ...

فقالت « العصا » :

ــ طبعا ... كى تمشى الأمور ...

وتنهد الحمار ولم ينهق وقال كالمخاطب نفسه :

ــ نعم.. نعم..وهكذا تبعث مرة أخرى البرامج والمذاهب والمبادئ التى تدور كلها حولى وتقوم على ظهرى، مطالبة بالحرية والعدالة وحقى فى الحياة ومستواى الرفيع فى المجتمع ... إلى آخره ... إلى آخره ...

وبدا الضجر على البيريه والعصا وقالتا معا :

ــ دعك من هذه الفروض الوهمية ... تكلم فى الواقع ...!

ــ وما هو الواقع ؟!.... أليس كلامى هو الواقع ؟!... عندما ألاحظ

وأقول إن برامجنا كلها واحدة ، وألفاظنا واحدة ، وشعاراتنا واحدة ، وهتافاتنا واحدة، ولا بأس عندكم الآن أن أقول إن « نهيقنا » .. أيضا له نغمة واحدة ..

فتململت العصا وقالت بامتعاض :

ـــ نهيقنا ؟!

فمالت عليها البيريه هامسة :

ـــ اسكتى ولا تستثيريه ...

فقالت العصا مستسلمة :

ـــ صدقت ... نعم نهيقنا ... ولكن ما وجه الغرابة يا عزيزنا الحمار فى أن تكون برامجنا واحدة ...؟

فقال الحمار :

ـــ لأن مصالحنا ليست واحدة !... ولا تؤاخذونى على الصراحة ... لماذا لا يفصح كل منكم عن مصلحته الخاصة ...؟!

ـــ ماذا تقصد بالضبط ...؟

ـــ أقصد لماذا لا يتقدم أحدكم مثلا ببرنامج عن مصلحته الرأسمالية ...؟!

ـــ يا خبر أسود !... مصلحتنا الرأسمالية ؟!.. أهذا كلام يوضع فى البرامج ....؟!

ـــ فعلا ... لا يوضع ولكنه يمارس ...

ـــ قلنا لك يا زميلنا العزيز إننا أصبحنا مثلك من الحمير ...

ـــ نعم ، ولكن نوع العلف والعليق مختلف ...!

الحزبنة

بعد أن انتهى الحوار بين العصا والبيريه والحمار فى مسألة المنابر والتصنيف والبرامج كان لابد أن يؤدى كل ذلك إلى القضية الكبرى : قضية الأحزاب ...

وهنا قالت العصا :

— دخلنا فى الجد !.. بعد المنبرة والصنفنة والبرمجة لم يبق أمامنا إلا الحزبنة !..

وقالت البيريه :

— حقا .. منبر وصنف وبرنامج ماذا يمكن أن يخرج من هذا ؟ إنه فعلا مشروع حزب ...

— نعم يا عزيزتى نحن نسير فى طريق الحزبنة والأحزاب !..

— ولِمَ لا ؟..

ومرت لحظة صمت .. ولاحظت البيريه والعصا أن ثالثهما الحمار مطرق بأذنيه الطويلتين لا يتكلم .. فسألته البيريه :

— لماذا أنت ساكت ؟!. قل لنا رأيك فى الأحزاب ؟..

فرفع الحمار رأسه قائلا :

— لقد سبق لى أن أبديت رأيى فى الأحزاب منشورا فى أكثر من كتاب منذ ثلاثين عاما .. ولذلك أرجوكم أن تعفونى من الكلام فى هذا

الموضوع ...

فقالت البيريه والعصا :

ــ نحن نعرف رأيك ونقدك لنظام الأحزاب كما كان يطبق فى ذلك العهد ... وما أدى إليه من صراع مستمر على كراسى الحكم ... وتعطيل العمل فى المشروعات النافعة ، والاهتمام الجنونى بلعبة الكراسى الحزبية ...

ــ فعلا ... كانت بلادنا كلها لا شغل لها إلا هذه اللعبة ، لعبة الكراسى الحزبية ، وما تؤدى إليه من عدم استقرار الحكم ...

وعقبت البيريه قائلة :

ــ هذا صحيح ، ولم يكن هذا حالنا وحدنا ... ففى دولة مثل فرنسا عمت الشكوى فى ذلك الوقت من ضراوة الصراع الحزبى ، وارتفعت أصوات تطالب بإصلاح النظام البرلمانى ، وكذلك الحال فى إيطاليا حتى الساعة حيث لا توجد حكومة تستطيع أن تستقر فى مقاعدها ... ولكن ما هو البديل ؟!.. لقد تحقق رأيك فى إيجاد حكم بغير أحزاب .. فماذا كانت النتيجة ؟!...

فخفض الحمار رأسه وقال بصوت الأسف :

ــ صدقتم ... كان البديل هو حكم الفرد ... الذى نتجت عنه الدكتاتورية البوليسية ... وما نجم عن ذلك من كوارث وخراب .. وما نراه اليوم من فزع وهلع من الحكم الفردى ، والهرب من شبحه المخيف ، بالصياح : إلى الأحزاب ، الأحزاب ...

ــ إذن أنت قد غيرت رأيك القديم !..

— نعم ولا ... نعم لا يمكن العودة إلى نظام الحكم الفردى ... ولا ... لا يمكن أيضا الرجوع إلى نظام الصراع على الحكم ولعبة الكراسى الحزبية التى توقع فى الفوضى السياسية وما تعانى منها اليوم بعض دول الديموقراطيةُ الغربية ...

— أنت تريد نظاما جديدا خاليا من هذين العيبين : الدكتاتورية ولعبة الكراسى الحزبية ؟!..

— بالضبط.. نظاما جديدا فيه محاسن حكم الفرد دون أضراره ومزايا حكم الأحزاب دون مساوئه ...

فقالت البيريه مازحة :

— أنت تذكرنا بحكاية فى الأدب العربى القديم عن رجل ذهب إلى سوق الدواب ليشترى حمارا ، ولا مؤاخذة ، فقال للبائع : « أريد حمارا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ، وإذا كثر الزحام ترفق ، إن أقللت علفه صبر ، وإذا أكثرته شكر ، وإذا ركبته هام ، وإن ركبه غيرى نام » . فحملق فيه البائع مشدوها وقال له :

— « يا عبد الله اصبر ، فإن مسخ الله قاضى المدينة حمارا أصبت حاجتك إن شاء الله !.. »

وعقبت العصا بدورها :

— زميلنا العزيز يريد لحما بلا عظم ، وخبزا بلا خلط ، وورداً بلا شوك ، ونظاما سياسيا بلا عيب ...

وهز الحمار رأسه قائلا :

— تقصدون أنى أريد المستحيل ؟!.

— تريد أن تبرهن لنا أن هذا ممكن التحقيق ...

— اسمعوا إذن : نبدأ أولا بالتفكير فى نزع الأشواك وإبعاد العيوب ، وأهم عيب فى الديمقراطية الحزبية هو الصراع للوصول إلى كرسى الحكم الذى يدمر كل شيء فى طريقه ويصبح هو الهدف الأكبر ، كما أن أهم عيب فى حكم الفرد هو القضاء على رقابة الشعب وإرادته ...

— مفهوم كل هذا .. ولكن كيف يمكن تصحيح هذين العيبين ؟!.

— المسألة بسيطة .. علينا قبل كل شيء أن ندرس ونفحص السبب الأساسى الذى جعل الاتحاد الاشتراكى عندنا وكذلك مجلس الشعب على هذه الحالة التى أشعرتنا بعدم الفاعلية . إن السبب ليس فى عدم وجود المعارضة فالمعارضة يمكن إيجادها فى صورة منابر أو أحزاب مع صحافة حرة ، ويبقى بعد ذلك الحال كما كان — وتبقى عدم الفاعلية كما كانت ، لأن المعارضة تخرج من فم ليس له أسنان ...

— تقصد معارضة كلامية صياحية لا نتيجة لها ؟..

— فعلا ... لا نتيجة لها . لأن المعارضة بالكلام والصياح وملء صفحات الجرائد الحرة بالنقد المرير ، كل ذلك مع الاعتياد يصبح ضعيف الفاعلية مثل مبيد الحشرات ، عندما تتعود عليه الحشرة وتتكيف معه ، مهما تمطرها بالمبيد تستمر على حالها غير مبالية .. كذلك كل مسئول يقول « ما دامت المسألة كلاما فى كلام ، اتركوهم يتكلموا على كيفهم !.. »

— وماذا ترى إذن ؟..

— أرى أن يكون مع الكلام فعل ، ومع اللسان أسنان . وأسنان

المعارضة هي القدرة على إسقاط المسئول ، لقد كنت فى الريف أرى ترحيب الأهالى بالمسئولين من أصحاب السلطة حاسبين حساب نفوذهم ، قائلين عنهم وعن سلطتهم : « اللى ما يقدرش يحبسنا مالوش عندنا اعتبار !.. » لذلك لا فائدة من المعارضة فى المجالس النيابية إذا لم يكن لها سلطة إسقاط الوزير أو الوزارة ، وإلا استمر المسئولون غير مبالين بأى معارضة قائلين : « اللى ما يقدرش يسقطنا مالوش عندنا اعتبار !.. »

ـــ عظيم .. ولكن كيف يتم ذلك ؟

ـــ عندى اقتراح : هو منح المجلس النيابى ، سواء كان هو الاتحاد الاشتراكى أم كان هو مجلس الشعب حق اسقاط الوزير بعد سحب الثقة منه بالأغلبية المطلقة ، وكذلك حق إسقاط الوزارة كلها بعد سحب الثقة منها بأغلبية الثلثين ... وبذلك تصبح المعارضة فعالة والرقابة على الهيئة التنفيذية وليست مجرد كلام ...

ـــ معقول ... ولكن هذا يستدعى تنظيم المجلس النيابى تنظيما حزبيا أو منبريا ..

ـــ فليكن .. ولتنشأ الأحزاب إذا شاءت على شرط أن لا يكون لها حق الوصول إلى الحكم . أى أنها تستطيع أن تسقط الوزارة ولا تملك أن تؤلف هى الوزارة . وإلا أصبح إسقاطها للحكومة مدعما إلى الطمع فى الحصول على الحكم .. وبذلك نعود إلى لعبة الكراسى الحزبية ...

ـــ ومن الذى يختار الحكومات والوزراء ؟

ـــ رئيس الدولة المنتخب من الشعب بالاستفتاء العام . على شرط أن يتقدم معه مرشح آخر أو مرشحون ...

وفكرت « البيريه » قليلا ثم قالت :

— اقتراح طيب ... خلاصته أنك تريد ديمقراطية منزهة عن الطمع فى كراسى الحكم ، ولها الرقابة الفعلية على الحكومة بما لها من حق إسقاطها . أما تعيين الحكومات فهو من حق رئيس الدولة وحده . ولا يكون هذا ديكتاتورية لأن قراراته تخضع للطعن والإبطال بأحكام مجلس الدولة والقضاء العالى الدستورى ، ولدينا المثل فى قرارات أصدرها زعيم فرنسا المعبود « ديجول » وأبطلها مجلس الدولة وقال ديجول كلمته المشهورة : إنى أنحنى !.. وانحنى فعلا أمام القضاء الحر .. يعنى صحافة حرة وقضاء حرا ومعارضة فعالة ، هذا الثالوث وحده يساوى انعدام الديكتاتورية ...

— إذن أنا على حق ...

— طبعا كل هذا للمستقبل بعد تغير الظروف ...

— قولوا الحمد إذن أن اقتراحى معقول وقابل للدراسة والفحص للأخذ مأخذ الجد ، بصرف النظر عن أنه صادر من رأس حمار !..

غلق الملفات

كان الجو مشمسا والمشى فى الطرقات ممتعا وسارت « العصا » ومعها « البيريه » ، و « الحمار » فى صمت ، وكان جميعهم يريد الاستمتاع بالمشى بعيدا عن ضجيج الآراء المتلاحمة هذه الأيام .. وأخيرا رفع الحمار رأسه مفاجئا بقوله :

— ما رأيكم لو دعونا إلى غلق الملفات ؟.

فصاحت « البيريه » :

— ما هذا الذى تقول يا عزيزنا الحمار ؟!. ندعو إلى غلق الملفات ونحن الذين دعونا إلى فتحها وتحملنا فى سبيل ذلك اللعنات ؟!

فقال الحمار :

— عندما دعونا إلى فتح الملفات ، وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٧٢ كان المقصود هو فحص إنجازات ثورة ١٩٥٢ بمناسبة مرور عشرين سنة على قيامها . وقلنا ذلك فى كتابنا الذى لعنوه .. ألا تذكرون ؟..

— نعم . ونذكر ما قلناه ونصه : « مهما يكن من أمر فإن هذه المرحلة من مراحل مصر التى استغرقت عشرين عاما سوف تكون موضوع دراسة مستفيضة ، وأرجو لدارسيها بفترتيها أن يكون رائدهم العدل والموضوعية وأن لا تطغى على تفكيرهم الهادئ الرزين وحكمهم الرصين أى حزازة أو مرارة أو مجاملة أو مبالغة ، وأن نذكر لها ولقادتها المحاسن

والمساوئ على السواء .

— والنتيجة ؟ ماذا كانت النتيجة ؟

— لا شيء ... فتحت كما رأيتم ملفات ضد ملفات .. وأصبحنا فى شبه ملعب كرة للنوادى المختلفة ، تتزاحم فيه الناس للفرجة ، والاستمتاع باللعبة وظهرت المقالات والكتب بالعناوين المثيرة ، ووضعت لها الأسعار المرتفعة التى لم يجرؤ أهل العلم أو الأدب أو الفن أن يضعوها على بعض أعمالهم .

— إنها حقا ظاهرة جديرة بالنظر : هذا الرواج للكتب والمسارح التى تهتف بالنقد الفاضح .. ومهما ترتفع أثمان النسخ والتذاكر فالتزاحم عليها شديد .. لعل السبب هو طول الحرمان من حرية الصراخ ..

— هذا صحيح . ولكن المهم مصلحة البلد ؟!. هل كل ما نريد من الحرية هو هذه الفرحة العلنية فى « كباريهات » السياسات والمجادلات والمهاترات ؟.. وبعد ذلك نقول ها هى ذى الملفات قد فتحت ؟!.

— لم يكن الغرض من فتح الملفات هو فتح ملف أشخاص ، ولكن فتح ملف مشروعات .. أى جرد الناجح والفاشل ودراسة المكاسب والخسائر ، حتى يمكن تنمية الأرباح وتجنب الخسائر ، ونحن شارعون فى عملية البناء ..

— قليل من فهم الأمر على هذا الوضع . لأن الكثير قد فهم أن مجرد ذكر كلمة فشل أو خسارة أو خراب هو تهجم يجب أن يقابله نفى قاطع . فلا توجد خسائر ، وكل ما حدث كان صحيحا وكسبا عميقا ، وكل خطأ يخلق له تبرير ..

— حقا .. وهكذا انقلب الأمر إلى مسرحيات وكتابات مرتفعة الثمن ، مرتفعة الصوت لمجرد الكسب المادى ولفت النظر .

— هناك مع ذلك وطنيون شرفاء ، لهم من تاريخهم الوطنى ما يشهد بأنهم أرادوا حقا ويريدون الطهارة والإصلاح .

— نعم . ولكن هل مكنوا من تحقيق هدفهم الشريف ؟

— ليس هذا سهلا فى وقت اختلط فيه الحابل بالنابل .

— إذن ، ربما كان الأنفع الآن للبلد هو غلق هذا الباب مؤقتا .. باب فتح الملفات ، لأنها لم تسفر عن الوصول إلى الحقيقة ، بل إلى مزيد من الشوشرة .

— إذن ما من أحد يريد الوصول إلى حقيقة .. وما دام الأمر كذلك فلا جدوى من فتح الملفات ، فلنغلقها ولنلتفت الآن إلى العمل الصامت والبناء الهادئ لبلادنا المحتاجة للترميم ، وكفانا فرجة عابثة على لعبة النوادى والأطراف المتصايحة ..

فاستطرد الحمار قائلا :

— وكل طرف يصرخ متهما الطرف الآخر بالهجوم الشرس عليه ، وينسى المثل الشعبى الريفى الذى يقول : « اللى يلعب الدح ما يقولش ... » !!!

— واستدركت العصا :

— ولكن هل معنى الصمت الاستغناء عن النقد ؟!

فأجابت البيريه :

— لا بالطبع . لابد من النقد . ولكنه النقد البناء . وهذا النقد يعتبر

جزءا من عملية البناء نفسها . وهو مرادف لكلمة دراسة وكلمة فحص . لأنه يتجه إلى صميم الأعمال ، وليس إلى خصوصيات الأشخاص ، وبنية التقويم وليس بشهوة التجريح ...

وعقبت العصا :

ــ هذا الكلام طيب ، لو أن الكل يهمه حقا بناء بلده ، ولكن هناك فريقا يهمه قبل كل شيء بناء ذاته ..

وأطرق الحمار مليا وقال :

ــ والله أنا غلبت فى البلد وغلبْ حمارى !..

الإنسان حيوان كلامنجى

فى مشية الصباح المعتادة عم الصمت بين الثلاثة المتلازمين « الحمار » و « العصا »و « البيريه » وهم بالطبع غير « الفرسان الثلاثة » المتلازمين فى القصص المشهورة ، فهم لا يحملون سيوفا ، ولكنهم يحملون ألسنة ، ليست مع ذلك ألسنة حدادا ... شلأنهم لا يحبون الطعن فى الأشخاص ، فالطعن والطعان عندهم فى الآراء ... واستمر الصمت بينهم فى ذلك الصباح لحظات قطعها الحمار قائلا بنبرة ضيق :

— سئمنا ومللنا وزهقت روحنا !..

فقال رفيقاه :

— صدقت !... وآخرة الكلام ؟..

— وهل للكلام آخر ؟!. ما دامت هناك مجالس فكل حاضر فيها لابد أن يلعب لسانه بكلام ... أى كلام غير مرتبط بأى كلام آخر ... كأن مجرد الكلام مقصود لذاته ...

— حقا . هذا ملاحظ فى أكثر الأحيان : أن يطلب أحدهم الكلمة لمجرد أنه يريد الكلام . لماذا ؟ لا لشيء غير ذلك . ويظهر أن هذا طبع بشرى . لأن الحيوان له أيضا ، كما يقول العلماء ، لغة يخاطب بها فصيلته . وكذلك الحشرات لها لغاتها . فللنمل لغة وللنحل لغة ، حتى الطير على الشجر والسمك فى البحر . ولكن الكلام عند هذه الكائنات

جميعا بحساب . أى لتأدية وظيفة معينة ، محدودة بالغرض المباشر . ولا يتصور أن يستعمل الحيوان أو الحشرات أو الطير أو السمك لغاتها لرواية نكتة من النكات ، أو لإلقاء خطبة من الخطب المنبرية أو للمواقف المظهرية ... ما عدا الإنسان فاللغة عنده ليست بالضرورة أداة توصيل ، بل أداة استماع . والكلام عنده أحيانا يحلو له مضغه مضغا للتسلية مثل اللبان ...

— لعل الكثير من المجالس واللجان والنوادى والمصاطب ونحو ذلك هى اختراعات بشرية لنوع من المصانع التى تنتج هذا اللبان المسلى !..

— وهل اللبان وحده هو الذى يمضغ ولا يبلع ولا يفيد إلا للتسلية ؟! عندكم السجاير التى ينفق فيها الإنسان الكثير من ميزانيته ليظل يقول : « هف !.. هف ! » ويسعل وينفث الدخان من الورق المحترق بنقوده !..

— وماذا نسمى ذلك ؟

فرفع الحمار رأسه قائلا :

— لو كان الحمار هو الذى يدخن ويمضغ اللبان ويتسلى بالكلام لقلتم عنه : « طبعا !.. حمار !.. »

فقالت البيريه :

— لا يا صديقنا العزيز ... إن الحمار لا يعرف هذه العيوب التى عند الإنسان ولعل ميزة الإنسان هى قدرته على الاعتراف بعيوبه ...

وعقبت العصا :

— نعم ... هو قادر على الاعتراف بعيوبه ولكنه عاجز عن

تغييرها ... إنك لا تسمع من المدمن إلا قوله دائما : « الله يلعن الدخان وسيرته ، خارب للجيوب وللصحة ! » فإذا قلت له : « ولماذا لا تبطله ؟ » أجاب : « فعلت أكثر من مائة مرة ! » ...

وتنهد الحمار وقال :

— آه ... منكم !... الحيوان مظلوم معكم !... لماذا يتميز الإنسان ويختص بصنع ما يضره ، وهو عالم بضرره ؟!. ما من حيوان يفعل ذلك !.. حاولوا أن تقدموا لفصيلتنا من الحمير لحوما فإنها ترفض ، وللسباع برسيما فإنها تأبى !.. وللإنسان أي شيء فإنه يأكل وتتعب معدته ويمرض ، ثم يعاود ولا يتعظ ...

وقالت البيريه :

— يظهر أن الحيوان أعطى الحكمة ، والإنسان أعطى العقل والحكمة معا لتغيير وجه الدنيا ...

وقالت العصا :

— حقا ... إن الإنسان لو أعطى الحكمة لكان كل شيء عنده بمقدار ، ولكنه « مفلوت العيار » !..

وقال الحمار :

— إنكم تتندرون دائما بنهيق الحمار ؟.. فهل نحن ننهق طول الوقت من غير لزوم ؟!

فقالت البيريه والعصا معا :

— لو فعلتم ذلك بطول الوقت لكانت مصيبة ! ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ ..

ــ هذا عندكم . أما عندنا فإنه المطرب المشجى !..

ــ المطرب المشجى ؟.. صوتكم !.

ــ نعم . ولو كانت لكم آذان مثل آذاننا لعرفتم !.

ــ ليست لنا آذانكم الطويلة :... ولعلها طويلة لتلتقط النهيق المطرب المستطيل !..

ــ وكلامكم الطويل الساعات الطوال بغير لزوم ، ماذا تقولون فيه ؟

ــ وأنت ماذا تقول ؟

ــ لقد قالوا إن الإنسان مدنى بالطبع ، وأنا أقول إن الإنسان « كلامانجى » بالطبع !..

(تحديات سنة ٢٠٠٠)

إجازة للعمال

كان اليوم يوم جمعة وأكثر المحررين فى إجازة وتأخر تصحيح المقال الأسبوعى المطلوب من الفرسان الثلاثة : « البيريه » و« العصا » و « الحمار » فرأوا الذهاب رأسا إلى المطبعة ... ولم يكن هذا مألوفا.كان المقال يأتى إليهم لمراجعته وهم فى حجرتهم على مكتبهم .. ولذلك دهش عمال المطبعة لمجيئهم ، وأقبلوا عليهم مرحبين ، وقدموا إليهم كوبا من الشاى فترددت « البيريه » قائلة :

— ما اشربش الشاى ..!

فقالت « العصا » متهكمة :

— أظنك ستقولين : « أشرب كازوزة أنا » !.

فتدخل « الحمار » قائلا :

— لا أنت ولا هى !.. أنا المقصود بالعزومة ... وكوب الشاى لى أنا .. فأنا أمثل العمل .. وأنا الآن بين عمال .

وسرت فى « البيريه » و « العصا » روح التنافس فصاحتا معا :

— كلنا المقصود . فثلاثتنا عندهم شىء واحد .

وأسرع الثلاثة فى حركة واحدة إلى الكوب وجعلوا يرتشفون معا وهم يقولون :

— الله !.. ألذ كوب شاى ذقناه !

وكان قولهم خالصا مخلصا . فاللذة المادية تتضاعف وتتكامل باللذة الروحية . وكانت روح العمال حولهم من الصفاء والمحبة بما لم يصادفوا مثله إلا فى النادر ..

وبدأت « البيريه » بقولها لبعض العمال :

ــ اليوم يوم جمعة ، وكثير من المحررين فى إجازة وأنتم أليست لكم إجازة أسبوعية ؟!

فأجابوا بالنفى .. وقالت « العصا » موضحة :

ــ طبعا لا يمكن أن تكون لهم إجازة أسبوعية . لأن الصحيفة نفسها ليست لها إجازة ..

وقالت « البيريه » :

ــ لا إجازة أسبوعية ولا إجازة عيد !

فقال « الحمار » :

ــ وما الحكمة فى ذلك ؟!

فأجابت « العصا » :

ــ الحكمة هى عدم انقطاع الصحيفة عن الناس .

فقال الحمار :

ــ وما الذى يجرى فى الدنيا إذا انقطعت الصحيفة يوما واحدا عن الناس ؟!

فقالت « البيريه » :

ــ ألا تدرى ما الذى سيجرى ؟

ــ أنا حمار .. فهمونى !

— وما الداعى إلى إفهامك ما دمت لا تفهم ؟!

— سبحان الله ! ومن أحوج إلى الإفهام ... أليس هو الذى لا يفهم !!

— إذن افهم أيها الحمار،إخواننا من الصحفيين يعتقدون أن الدنيا سوف تنقلب.. وأن يوم الحشر سوف يقترب ، إذا اختفت صحيفتهم عن الناس يوما واحدا !!

— وهل هذا رأى الناس ؟

— رأى الصحفيين .

— تقصد الصحفيين فى بلاد العالم أو فى بلادنا ؟!

— وما الفرق ؟

— الفرق واضح .. وهو أنه فى بلاد مثل فرنسا مثلا لا تظهر الصحف فى يوم الأحد .. مع أنها بلاد ليست فيها نسبة أمية ما يقرب من ثمانين فى المائة !

— وكيف يعرفون أخبار الدنيا فى ذلك اليوم ؟

— عندهم الإذاعة ... كما هى عندنا ! وكذلك التلفزيون !

— وهل هذا يكفى ؟

— الظاهر أنه عندهم يكفى .. أما عندنا حيث تعدادنا يبلغ نحو الأربعين مليونا كلهم من المثقفين والمفكرين والعلماءوالأدباء فلا يمكن أن يصبروا يوما واحدا دون ظهور الصحيفة واستهلاك الورق مثل استهلاك الخبز !!

— ما شاء الله !

— طبعا نحن شيء والبلاد الأخرى شيء آخر .. نحن فى مستوى وهم فى مستوى آخر .. ﴿ وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ؟

وهنا قال الحمار :

— ومن قال إننا نريد أن نهبط إلى مستوى البلاد الأوروبية ؟! وأن نغلق صحفنا كلها يوم الأحد أو يوم الجمعة ؟! كل ما نقترحه هو أن يكون فقط لكل صحيفة يوم إجازة فى الأسبوع . إن لدينا ثلاث صحف يوميا . على كل واحدة منها أن تختار لها يوم إجازة ، بينما تظهر الزميلتان الباقيتان .. وبهذا تعطى فرصة الرواج وزيادة التوزيع فى يوم واحد فى الأسبوع لكل صحيفة يعوضها عما خسرته فى يوم عطلتها . وبهذا وهو الأهم إعطاء كل عامل من عمال هذه الصحف يوم إجازة كاملة فى الأسبوع .

فقالت « البيريه » :

— الرأى فى هذا رأى مجلس الصحافة ونقابة الصحفيين .

وقالت « العصا » :

— وهل رأى نقابة الصحفيين عندنا مثل رأى نقابة الصحفيين فى فرنسا ؟!

فقال « الحمار » :

— حذار على كل حال من القول أن الاقتراح صدر من الحمار !

تاكسى

كان الصباح منذرا بالدفء . وعند المشى والشمس ساطعة يقترب الدفء من الحر ويصبح المشى مرهقا . وهذا ما شعر به الفرسان الثلاثة : « البيريه » و « العصا » و « الحمار » فى منتصف الطريق . فقالت البيريه :

ــ إذا أردنا مواصلة المشوار فلابد من « تاكسى » ..

فصاحت العصا ومعها الحمار :

ــ تاكسى ؟! أهذا ممكن ؟!. جرى فى عقلك حاجة ؟!

ــ ولِمَ لا ؟! ها هى ذى التاكسيات تملأ الشوارع ..

ــ فلنحاول إذن .. لعل وعسى !..

وكانت المحاولة اليائسة من أجل إيقاف تاكسى من تلك التاكسيات التى تسابق الريح ولا تقف لمخلوق ..

وقالت العصا بعد أن تعبت من الإشارة إلى هذه التاكسيات لا بالوقوف بل لمجرد إلقاء نظرة :

ــ حتى النظرة إلينا لا نظفر بها من السيارة .. نظرة يا ست !..

وقالت البيريه فى صيحة :

ــ انظروا .. انظروا .. هذا التاكسى الخالى بلا ركاب .. إنه مع ذلك يجرى بأقصى سرعة كأنه فى ميدان سباق !..

وقالت العصا :

ــ العجيب أن أكثر التاكسيات المشغولة لا تحمل غير راكب واحد يجلس إلى جوار السائق ، وبقية المقاعد خالية كأنها تتحدى جميع الواقفين المرهقين من طول الوقوف والانتظار المتطلعين إلى مقعد ينقذهم من هذا البلاء والعياذ بالله ..

وقالت البيريه :

ــ وما العمل الآن ؟! ليس لنا إلا أن نواصل السير على الأقدام ، فجحيم الحر والشمس خير من جحيم هذا الأمل الكاذب والسراب الخادع ..

ومشى الفرسان الثلاثة فى إطراق ويأس ومذلة ... وإذا بأحدهم يصيح فجأة :

ــ اقرصونى !.. هل أنا فى حلم ؟!.. أليس هذا الواقف على ناصية الشارع شبح تاكسى ؟!

فصاح زميلاه :

ــ نعم ... نعم ... إنه تاكسى بالفعل .. وتاكسى خال ... وسائقه واقف إلى جواره يتناول فطوره ..

ــ حقا .. سائقه فارش منديله على الرفرف وعليه الطماطم والفجل والبصل ...

ــ جاءنا الفرج !.

وأسرع الثلاثة إلى التاكسى فابتسم لهم السائق وأشار إلى طعامه قائلا :

ــ تفضلوا معنا !..

فشكروه وانقضوا بسرعة على باب التاكسى يريدون الركوب .. وإذا بالسائق يمنعهم بلطف :

ــ لا مؤاخذة ... مشغول !..

فصاح الثلاثة فى يأس :

ــ يا نهار ذى بعضه !.. حتى الفطور مع السواق أسهل من ركوب التاكسى !.

والتفتت العصا والبيريه إلى زميلهما الحمار قائلتين :

ــ ورغم ذلك معنا ركوبة تسهل لنا الأمــور !...

وفطن الحمار وقال :

ــ ما هو قصدكم من فضلكم ؟!.

ــ لا ... لا شىء ... نحن فقط نتكلم بصفة عامة على سبيل المثال : لو أباحوا استخدام الحمير لحل أزمة المواصلات ... وجعلوا فى كل حى من الأحياء موقف حمير كما كان الحال فى القرن الماضى ومطلع القرن الحالى أما كان هذا أهون من هذا الكرب الذى نحن فيه ؟!

ــ دعكم من هذا التخريف ولنفكر فى حلول عملية ..

ــ فكر لنا أنت بعقلك الراجح ..

ــ يقال إننا فى بلد اشتراكى .. فهل من الاشتراكية أن يستأثر راكب واحد بالسيارة التاكسى وفيها مقاعد خالية تتطلع إليها أكداس من الجموع الواقفة ؟!... ولماذا لا يُسمح لمثل هذه السيارة بأن تعرض مقاعدها الخالية على من يقبل من هذه الجموع شغلها ؟..

ــ المانع هو أن بعض المسئولين فى بلدنا ينظرون إلى كل حل من زاوية

الاعتراض ، وينتهى الأمر إلى إبقاء كل شيء على حاله ولا داعى لوجع الدماغ !.

فقال الحمار :

ــ إذن لا داعى إلى وجع دماغنا نحن أيضا .. ما دامت الأشياء لا تؤخذ على سبيل الجد !.. وبالمناسبة .. عندما عزم علينا السائق الكريم بتناول الفطور معه هل كان جادا حقا ؟!

فقالت البيريه :

ــ أشك ...

فقال الحمار :

ــ ألم يقل لنا : « تفضلوا معنا » ؟!..

فقالت العصا :

ــ هذه العبارة فى بلدنا مجرد كلام .. ككل الكلام !..

فقال الحمار :

ــ صحيح ... وأذكر أنه فى ذات يوم كنت أسير فى الطريق قاصدا مكانا بالذات وإذا بشخص لا أعرفه يشير إلى بالتحية وهو سائر فى الاتجاه العكسى قائلا لى : « تفضل معنا » ، واستمر فى سيره حتى اختفى عن نظرى .. وتركنى أردد عبارته وأتعجب : أتفضل معه ؟!. فين ؟.. أين ؟.. ولماذا ؟!..

فقالت البيريه ومعها العصا :

ــ لا تدقق !... أنسيت أننا فى بلد الكلام فى ناحية والعمل فى ناحية ....

على شط النيل

لم يكن مشى الفرسان الثلاثة « البيريه » و « العصا » و « الحمار » فى الصباح مشيا حثيثا بل كان دائما مشيا متباطئا متمهلا ، كمن يريد تأمل ما يجرى فى الطريق وما يبدو من أحوال الناس . وفى طريق الكورنيش كانت « البيريه » أكثر التفاتا إلى النيل وما يحدث فيه .. ولذلك استوقفت الزميلتين أمام منظر قلما يثير التفات الآخرين .. إنه منظر الصيادين فى قواربهم الصغيرة .. وجمد الثلاثة أمام المنظر لحظة ، إلى أن قالت « العصا » :

— وآخرة وقوفنا ؟! قارب صيد عادى ! ماذا فى ذلك ؟

فقالت « البيريه » وهى مستمرة فى مراقبة القارب :

— نعم . قارب صيد عادى مثل بقية القوارب .. ولكن انظروا إلى ما بداخله إنه عالم صغير . متواضع . رب الأسرة هو الصياد الذى يرمى الشباك وهذه زوجته أمام نار وابور جاز تطهو طعاما ، وإلى جانبها طفل رضيع ، والابن الأكبر يساعد أباه ، والأوسط يمسك بالدفة .. وها هى ذى الزوجة بإشارة من الزوج تمسك بالمجدافين لتسير بالقارب فى الاتجاه المطلوب .

— حقا .. أسرة متكاملة متعاونة .. توزيع العمل فيها يشبه التوزيع الموسيقى .

فبادرته العصا بقولها :

ـــ اسكت من فضلك ! لا تتكلم أنت عن الموسيقى ... لا تذكرنا بأنكر الأصوات !

واستمرت البيريه فى تأمل القارب وهى تقول :

ـــ لا شك أن سكان هذا القارب الصغير لا يشكون من أزمة الإسكان ولا يعرفون شيئا عن خلو الرجل وتكاليف الديكور ، ومشكلات الشقق المفروشة ، والشرفات المطلة على النيل ، وما تدخلها الشمس ومالا تدخلها ، وحى الزمالك أو الجيزة أو روض الفرج .. لا شأن لهم بكل ذلك .. فهذا العالم البسيط الذى يملكونه يستطيع أن يمنحهم حرية الانتقال من حى إلى حى ، ويستقبلون كل شمس وكل اتجاه ... والنيل كله لهم ، يحميهم من برد الشتاء بأشعة شمسه ومن قيظ الصيف بلطف نسيمه . فلا حاجة لهم بالمعاطف والكوفيات ولا بالحرير والمهفهفات ولا بطالة عندهم ولا تسكع فيما لا يفيد .

فقال الحمار :

ـــ نعم .. جميل كل هذا ولكن .. حياتهم هذه بين الماء والهواء ترادف أرزاقهم المعلقة أيضا بالماء والهواء ! إنهم لا يستطيعون أن يطالبوا السمك فى الماء بمرتب ثابت ! ولا الهواء والسماء بمظلة تأمينات !

فقالت البيريه :

ـــ يظهر أن السماء هى مظلة الذى يعيش فى الهواء . أما الذى يعيش تحت سقف من الأسمنت والحديد فهو الذى فى حاجة إلى مظلة أخرى غير السماء .

فقال الحمار :

ـــ ومن قال لكم إن الذى يعيش فى الهواء لا حق له فى المظلة الأخرى مع مظلة « السماء » ؟ لماذا يحرم ؟!

فقالت البيريه :

ـــ لأنه فى وسط الماء .. كيف نصل إليه ؟ لا هو عامل فى مصنع ولا فلاح فى غيط ؟!

وتململت العصا من الضجر وقالت :

ـــ احشروه تحت أى مظلة وخلصونا !

وتحركت بهم لاستئناف المسير .. وساروا ثلاثتهم فى صمت .. إلى أن أشرفوا على جماعة تتشاجر فى الطريق كان التضارب بالأيدى والأرجل بين الطرفين .. ولم يقف الفرسان الثلاثة للمشاهدة أو لمعرفة السبب . فهم فى مثل هذه الأحوال يرون الأصوب تجنب التدخل والابتعاد عن البهدلة .. فأسرعوا فى المشى بعيدا عن الخناقة ، وإذا بشخص من أحد الطرفين قد انسل من وسط المشاجرة ولحق بهم يريد انتزاع العصا قائلا :

ـــ عن إذنكم .. اسمحوا لنا لحظة واحدة نضرب بها الجماعة الأوغاد دول !

ولم يكد يتم كلامه حتى لحق به واحد من الطرف الآخر جاء هو أيضا ينتزع العصا لنفس الهدف . وقامت بين الاثنين معركة حول العصا وتراشق بالسباب .. وأمسك كل منهما بجزء من العصا يجذبه ناحيته .. واشتد الجذب والشد والعصا المسكينة تكاد تنخلع رقبتها فى يديهما وتصيح بالزميلتين لإنقاذها . ولم تستطع البيريه أن تفعل شيئا غير الكلام بالحسنى

والمنطق قائلة :

ــ يا اخواننا .. عيب .. هذه العصا ليست للضرب .

ولكن صوتها ذهب هباء بين صخب الشتائم ورعد الصياح .

ولجأت البيريه إلى الزميل الحمار قائلة :

ــ كيف ننقذ زميلتنا العصا من هذه الورطة ؟! الكلام لا فائدة منه كما رأيت.ألا تستطيع التدخل بالرفص ؟

فقال الحمار :

ــ الرفص ؟! أرفص ؟! أنا نسيت الرفص من زمن بعيد ! أنا لم أعد أستخدم الحافر .. أنا الآن أستخدم العقل !

فقالت البيريه فى تهكم :

ــ العقل ؟! الآن ؟! أفى عالم عاد إلى استخدام الحوافر ؟!

العيـون المفتـوحـة

قالت البيريه :

ـــ فى كتاب قديم لألدوس هاكسلى نشر منذ أكثر من ثلاثين عاما بعنوان ـــ أغبى حيوان ـــ عرفت المقصود من مجرد العنوان ... فمعرفتى القديمة بتفكير هاكسلى جعلتنى أدرك المقصود بالحيوان ..

فقال الحمار :

ـــ إياكِ أكون أنا المقصود !..

فقالت البيريه :

ـــ اطمئن .. إنه يقصد الإنسان ... ولقد تحقق ظنى بعد قراءة الكتاب .. فموضوعاته كلها تدور بالفعل حول الإنسان وقضاياه الكبرى ، مثل قضية المساواة البشرية والديمقراطية والعقائدية والتربية ونحو ذلك ..

وقالت العصا :

ـــ وما وجه الغباء فى ذلك ؟

فقالت البيريه :

ـــ هذا مجرد عنوان .. ولعل المقصود هو أن الإنسان يضع بنفسه قضاياه وأفكاره ثم يضحى أحيانا بحياته ودمه فى سبيل الدفاع عنها . مع أنه فى كثير من الأحيان قد لا يقتنع بها كل الاقتناع . وفى أحيان كثيرة أخرى

يتقبلها ويأخذها على علاتها دون أن يفحصها الفحص المتعمق ...

فقالت العصا :

— من الذى يفحص ؟.. إذا كنت تقصد الإنسان بمعنى الإنسانية كلها فهذا غير صحيح — لأن الإنسانية كلها لا تفحص ... إنما هى تسير خلف نوع نادر من الإنسان هو الذى يفكر ويفحص ويقودها بعصاه .. ويجعلها تقتنع ويدفعها إلى السير إما إلى الأمام أو إلى الخلف وإلى المغانم أو المهالك حسب الطريق الذى دفعها إليه . صوابا منه أو خطأ ... فالمسئول إذن ليس مجرد الأفكار التى تخرج من رأسك . ولكن تناول العصا لها لتقود بها الإنسانية .

فقال الحمار :

— وما هى العصا ؟ أهى عصا الضرب ؟...

فقالت العصا :

— لا بل عصا القيادة . وهذه القيادة ضرورية عند كل اتجاه .. انظروا إلى الطيور المهاجرة تجد أسرابها فى السماء وفى مقدمتها أحدها ليقودها إلى الوجهة المطلوبة . وكذلك الحال فى قطعان الحيوانات التى تتنقل فى مجموعات فإن أحدها يسير أمامها ليكون لها دليلا ومرشدا ومسئولا عن سلامة القطيع .

فقال الحمار :

— ولكن ... عند فصيلة الحمير لا يوجد حمار يقودها !..

فقالت العصا :

— نعم ... لأن الذى يقودها ليس منها .... إنه الإنسان . يقودها

لأغراضه هو وليس لأغراض الفصيلة .

فقال الحمار :

— وما السبب فى ذلك ؟

فقالت العصا :

— السبب هو أنها استؤنست ... استأنسها الإنسان وأخضعها لإرادته وتولى هو قيادتها لخدمة أغراضه .

فقال الحمار :

— أمن أجل هذا قيل إننا حمير ؟

فقالت البيريه :

— اطمئن يا عزيزنا الحمار .. إن الإنسان أيضا يحدث له ذلك . فيخضعه إنسان آخر لإرادته ويجعل منه قطيعا يسير خلفه إلى حيث يوجهه . وأحيانا يكون التوجيه سيئا . ويصدق فيه قول الشاعر العربى القديم :

إذا كان الغـــراب دليـــل قوم   يمر بهم على جيف الكلاب !

كما أنه فى أحيان أخرى سعيدة يكون طيبا فيسعد به القطيع كله ...

فقال الحمار :

— وكيف يضمن الإنسان عدم خضوعه للإدارة السيئة ؟ إن الطير أو الحيوان أحسن حظا من الإنسان . لأنه قلما يختار قائدا ومرشدا ضعيفا قليل الخبرة بالطريق الصحيح !... إنه يحسن الاختيار دائما لمن يسير خلف قيادته ..

فقالت العصا :

ـــ وهل الطير أو الحيوان هو الذى يختار قائده أو أن القيادة يفرضها القوى من الطير أو الحيوان ؟..

فقال الحمار :

ـــ فى اعتقادى أن الذى يختار القوى عند الطيور والحيوان هى الطبيعة . والطبيعة قلما تخطئ . وهى تزود من يتولى قيادة السرب أو القطيع بكل ما يؤهله للقيادة السليمة .

فقالت البيريه :

ـــ هذا صحيح . وهو من حسن حظ الطير والحيوان . أما الإنسان فتقع عليه هو مسئولية اختياره لمن يقوده . وعليه هو أن يرسم لقيادته طريق السلامة . بما أعطى من عقل وتفكير وإرادة حرة . إن الطير أو الحيوان يستطيع أن يطير أو يسير خلف قائده بعيون مغلقة لثقته بالطبيعة التى زودت قادته بكل ما يؤمن طريق سلامته أما الإنسان الذى عليه أن يختار قيادته بنفسه بغير ضمان من الطبيعة فعليه دائما أن يسير بعيون مفتوحة ...

الثورى والملتزم

قال الحمار :

ــ كثيرا ما أسمع كلمات تطلق بغير تحديد لمعناها . وأنا مخلوق بسيط صريح واضح أحب دائما أن يكون لكل لفظ معنى محدد . فمثلا كلمة ثورى ، وكلمة ملتزم ، وكلمة ثورية ، وكلمة التزام .. ما هو المقصود من ذلك .؟

فأجابت « البيريه » :

ــ أنا أفهمك .. افرض أن أحدا قدم إليك علفا مخلوطا بالتراب .. ماذا تفعل ؟

فقال الحمار :

ــ ألعن له والديه وألقى بالعلف فى وجهه !..

فقالت البيريه :

ــ هذا لا يكفى . ولا يعتبر ثورة ..

فتدخلت العصا قائلة :

ــ أضربه وأسيح دمه ...

فقالت البيريه :

ــ كل هذا يسمى « العنف » .. ولكنه لا يسمى « الثورة » .

فقال الحمار :

ـــ وما هى الثورة إذن ؟

فقالت البيريه :

ـــ الثورة غير العنف . وقد تحتاج إليه وقد لا تحتاج .

فقالت العصا :

ـــ أهى أحجية ؟.. أهى « فزورة » ؟

فقالت البيريه :

ـــ إنها أبسط من ذلك ... ولكن هذه الكلمة التى اختلط بها كثير من الأوصاف كانت تخفى جوهرها الأصيل ...

فقال الحمار :

ـــ وما هو جوهرها الأصيل ؟

فقالت البيريه :

ـــ التغيير .

فقالت العصا :

ـــ الرفض .

فقالت البيريه :

ـــ لا ... الرفض ليس الثورة إنه مجرد سبب . فرفض الأوثان ليس هو الدين . ولكنه سبب للدين ...

فقال الحمار :

ـــ تقصد أنى عندما أرفض العلف المخلوط بالتراب فإنى لا أقوم بثورة ضده ؟..

ـــ رفضك فقط شيء سلبى. أما الثورة فعمل إيجابى . هى بعد الرفض

رؤية للتغيير ، ثم العمل على تحقيق التغيير .

وقالت العصا :

— إذن الرافض ليس هو الثائر . وقد يكون الرافض مجرد مشاغب . ولن يكون ثائرا إلا إذا كان لديه برنامج تغيير من الممكن تحقيقه عمليا . أما إذا كان تغييره مستحيل التحقيق فإن عمله يصبح مشابها لرفضه ، أى يقترب من المشاغبة أو السلبية ... أو من الأحلام الوهمية .. إن مبدأ الثورة إذن باختصار هى رؤية أو عمل للتغيير من الممكن تحقيقه عمليا فى الحاضر أو المستقبل القريب ..

فقالت البيريه :

— نعم المستقبل القريب ... لأن المستقبل البعيد يمكن أن تتحقق فيه رؤية للتغيير كانت من قبل فى عداد الأحلام .. وهنا يمكن أن نفرق بين الثورة العملية والثورة الفكرية .. فالثورة العملية مجالها الحاضر أو المستقبل القريب ، أما الثورة الفكرية فقد يظهر أثرها بعد أعوام طويلة تستكن خلالها فى وجدان الشعب إلى أن تفرخ .. وقد تكون الثورة العملية وليدة تلك الثورة الفكرية السابقة ...

فقالت العصا :

— بل يجب على كل ثورة أن تكون وليدة ثورة فكرية حقيقية تكون لها بمثابة البذور والجذور .. وإلا كانت مجرد ريح صرصر عاتية تقتلع ما هو مغروس ولا تنبت زرعا جديدا ..

وقال الحمار :

— فهمنا الثورة .. فما هو الالتزام ؟.

فقالت البيريه :

ــ الالتزام هو التمسك بشيء حدث ، والثورة هي النظر إلى شيء سيحدث ...

وقال الحمار :

ــ إذن عندما أسمع عن مفكر أو أديب أو فنان أنه ملتزم فمعنى ذلك أنه متمسك ومناصر لاتجاه أو فكر أو موقف قد وجد بالفعل ... أما الثوري فهو الموحي أو المتطلع إلى تغيير شيء أو وضع لم يوجد بعد ...

فقالت البيريه :

ــ هذا صحيح . وها أنت ذا قد عرفت ما كنت تسأل عنه ...

وقالت العصا :

ــ والآن يا عزيزنا الحمار ماذا أنت فاعل وقد قدم إليك العلف المخلوط بالتراب ؟...

فقال الحمار :

ــ أثور بالطبع ... هذه الثورة المنتجة .. أطالب بالتغيير ، على أساس الحلول الممكنة ... على أن نشترك جميعا لنزيل الفساد ...

فلندع رجل التاريخ للتاريخ

قالت البيريه :

— لقد كنا على حق يوم اقترحنا هنا قبل ذلك « غلق الملفات » مؤقتا وفى الظروف الحاضرة بعد أن اتضح أن فتحها الذى كنا قد دعونا إليه لم يسفر عن الوصول إلى حقيقة بقدر ما أدى إلى مزيد من الاضطراب والشوشرة .

فقالت العصا :

— فعلا . حتى الملفات التى قصد بها توضيح المواقف بكل صدق وأمانة وحسن نية فإنها تحدث انطباعا عكسيا .. من ذلك المقال المنشور فى مجلة روز اليوسف بعنوان « التاريخ السرى لحكم عبد الناصر من داخل مكتب معلوماته » . فهو على الرغم من كونه مقالا ممتعا وناجحا ومثيرا من الناحية الصحفية إلا أنه خطير بما فيه من عبارات ذات معنى .

فقالت البيريه :

— حقا .. عبارات خطيرة مثل : « عبد الناصر لم يكن يحكم مصر قبل يونيو ٦٧ .. كانت قوة مجموعة المشير قد تزايدت حتى سيطرت على كل الأمور فى البلاد ... » و « إن عبد الناصر والمشير عامر كانا يتسابقان كل فى اتجاه : عبد الناصر يريد أن يمنع وقوع الحرب وعبد الحكيم عامر يريد أن يخوضها بأسرع ما يمكن » .. « المشير ومجموعته يريدون أن

يقوموا بحركة عاجلة ضد إسرائيل ليعودوا بعدها ليحكموا مصر حكم المنتصرين وينحوا عبد الناصر » .. ألم يسأل أحد نفسه ماذا كان سيؤول إليه أمر هذه البلاد إذا ما استطاعت قيادة المشير ومن كانوا معه أن تحرز نصرا ولو محدودا فى سيناء مع ما عرف عنهم من صفات وميول وأطماع» ..

فقالت العصا :

ــ أليست هذه المعلومات تلقى انطباعا بأن أحد الفريقين المتسابقين ، على حد تعبير المقال ، كان يخشى النصر حتى لا يصل الفريق الآخر إلى الانفراد بالحكم !.. وهذا شيء خطير !..

قال الحمار :

ــ مثال آخر لحسن القصد الذى يراد به الدفاع عن عبد الناصر فيأتى بعكسه .. ذلك هو ابتداع كلمة « الناصريين » .. إذ أن معناها هو إنزال « عبد الناصر » من زعيم أمة إلى زعيم حزب .. أى أنه بعد أن كان تجسيدا لمصر كلها فى فترة تاريخية من فترات تاريخها الحافل تقصر قامته ويصغر حجمه ليتجسد فى تنظيم سياسى ضمن غيره من التنظيمات الأخرى .

قالت العصا :

ــ وهذا يذكرنا بما حدث مع « سعد زغلول » فإنه كان تجسيدا لمصر كلها ثم أصبح مجرد زعيم لحزب مع بقية الأحزاب .

فقالت البيريه :

ــ هذا صحيح .. ولذلك عندما جسد سعد زغلول الأمة كلها فى فترة من تاريخها وكان معبودها الوطنى كان هو الملهم لكل ما ينبع من الشعور الوطنى مثل كتابنا « عودة الروح » . أما عندما أصبح زعيم

حزب للوفديين أو السعديين مع بقية زعماء الأحزاب كحزب الأحرار الدستوريين والوطنيين والمستقلين الخ ... الخ .. فقد تفتت إشعاعة العام الملهم وأصبح تجسيده هو لحزبه وتنظيمه ، وانفرد حزبه وتنظيمه برعايته وصيانته ، وأصبح استلهامه مختلطا بصفة الحزبية .

فقال الحمار :

ـــ إذن حزب أو تنظيم « الناصريين » إذا قدر أن يتكون فإنه سوف يصبح مثل حزب « السعديين » !..

قالت العصا :

ـــ فعلا .. وبذلك يتضاءل حجم عبد الناصر . ذلك الحجم الذى كان تجسيدا لتاريخ مصر كلها فى فترة هامة من تاريخها الطويل ، وعلى هذا الأساس عاملناه فى كتاب « عودة الوعى » وحاسبناه كرجل تاريخ .. أما عندما ينكمش حجمه إلى راية لحزب ناصرى أو زعيم لتنظيم سياسى كما يراد له بحسن نية ولا شك ، فإن وضعه يتغير ويترك أمره فى نطاق حزبه وتنظيمه .. وتصبح معاملته عملا حزبيا ..

قالت البيريه :

ـــ إذن كان الرئيس السادات على حق وبصيرة يوم قال : « ارحموا عبد الناصر ودعوه فى مكانه من التاريخ » .

العمـل واللعـب

قالت البيريه :

ــ أحيانا تمر برأسي خواطر لا أدرى موضعها من الجد أو الهزل ، ولكنها على كل حال تجعلنى أقف عندها أتأمل فيها .. من ذلك ملاعب السيرك وما يعرض داخلها من ألعاب يقوم بها الحيوان المدرب .. كل أنواع الحيوان هناك : من خيول وقرود وماعز ، وكلاب البحر وكلاب البر ، بل حتى الأسود والنمور والفهود .. بل حتى الأفيال التى كالجبال .. كل ذلك ما عدا الحمير !..

فقال الحمار :

ــ نعم ! نعم ؟!... ما هو قصدك ؟!

فقالت البيريه :

ــ لا أقصد شيئا بالذات . إنما هو مجرد خاطر عابر . هل شاهدت يا زميلنا العزيز حمارا يلعب فى سيرك كما يلعب الحصان ؟! لماذا يلعب الحصان ويرقص ويتبختر على أنغام الموسيقى والمزمار والطبل البلدى .. أما الحمار .

فقال الحمار :

ــ فصيلتنا لا تلعب .. إنها تعمل . حيثما يوجد العمل الشاق يوجد الحمار . على ظهره يلقى بغبيط السباخ . أما الحصان فعلى ظهره يمتطى

الراكب المتأنق ، وفى فمه يوضع السكر ، ويراهن على فوزه الناس فى ميادين السباق .. أيوجد سباق للحمير كما يوجد سباق للخيل ؟ وهل تفضل أحد بوضع قطعة سكر فى فم حمار ، كما يوضع فى فم حصان ؟!

وقالت العصا :

— ولماذا لا تسأل : كيف قامت الحروب منذ آلاف السنين على ظهور الخيل ! ولماذا لم تقم على ظهور الحمير ؟!

فقال الحمار :

— ربما كانت الحروب تدخل فى باب الألعاب أكثر مما تدخل فى باب الأعمال !..

فقالت العصا :

— أتسمى الحرب لعبا ؟!..

فقال الحمار :

— أسميها بما كان يسمى استعمال السيف من قديم . ألم يكن يسمى « اللعب بالسيف » ؟! ثم اسم الحرب فى جوهرها ؟! أليست تقوم على احتمال الفوز والخسارة فى ميادين السباق ؟!...

فقالت العصا :

— أتريد أن تلغى دور الحرب فى دفع العدوان واسترداد الحقوق المغتصبة ؟

فقال الحمار :

— وقبل العدوان واغتصاب الحقوق ؟! ماذا كان على الأرض ؟.

فقالت البيريه :

ـــ صدقت يا زميلنا العزيز .. فى الأصل كان على الأرض العمل .. ثم بعد الفراغ من العمل كان اللعب .. ومن اللعب نبعت المنافسة والمبارزة والغالب والمغلوب والفائز والخاسر ..

فقال الحمار :

ـــ ثم ظهر الطمع .. وانقلبت لعبة الفائز والخاسر والغالب والمغلوب إلى وسيلة للظفر بما فى أيدى الآخرين . وكان العدوان . ثم رد العدوان . وكانت الحرب ..

فقالت العصا :

ـــ معنى ذلك أنه لولا اللعب ما كانت الحرب ؟!

فقالت البيريه :

ـــ بل معناه أنه لولا الطمع ما تغير وجه اللعب ..

فقال الحمار :

ـــ إذن لو اتيح للبشرية أن تخط مصيرها من جديد وألغت الطمع من الوجود فسوف يختفى العدوان ويصبح اللعب بريئا من كل سوء ... ولا يبقى على الأرض غير العمل ..

فقالت البيريه :

ـــ هذا صحيح ..

وقالت العصا :

ـــ وبذلك يا عزيزنا الحمار تنال ما تتمنى !..

فقال الحمار :

ـــ وهل يوضع فى فمى السكر ؟..

فقالت البيريه :

ـــ هذا أقل ما يجب !..

فقال الحمار :

ـــ ومع ذلك ... لست أدرى هل سيروق لى طعم السكر كما يروق للحصان ؟!.. إنى قانع بقليل من العناية والتقدير وأن يوزن العمل بوزن اللعب ..

تراخى الإيقاع

قالت العصا :

ــ إن المتأمل فى حياتنا يستطيع أن يرى ظاهرة واضحة تشمل كل شىء : تلك هى ظاهرة التراخى فى كل حركة .. فى العمل وفى اللهو . فى الجد وفى الهزل .. فى حين أننا نرى عكس ذلك فى البلاد المتقدمة ..

قالت البيريه :

ــ هذا صحيح .. إن إيقاع الحياة فى بلادنا مشابه لإيقاع الموسيقى عندنا .. هل سمعت فى أى بلد متقدم أغنية تستمر أكثر من ساعة بنغمة واحدة وكلمات واحدة تظل تتكرر وتتكرر وكأن الزمن قد تسمر ؟!

قال الحمار :

ــ إذن هناك علاقة بين إيقاع الموسيقى وإيقاع الحياة فى أى بلد من البلاد !!

قالت البيريه :

ــ بدون شك ... لأن الموسيقى هى تعبير عن إحساس . وعندما يقل الإحساس بحركة الزمن عند بلد أو شخص من الأشخاص فإن ذلك يظهر فى حركة أعضائه ، وفى حركة تفكيره ...

قالت العصا :

ــ على ذلك فإن إيقاع التفكير وإيقاع الإنتاج غير منفصل عن إيقاع

الموسيقى ؟!.

قال الحمار :

ـــ أنا لا أفهم كثيرا فى الموسيقى . ولكن يظهر أن الإيقاع يختلف باختلاف العصر والزمن . ففى عصر استخدام الدواب كان الإيقاع ولا شك مختلفا عن الإيقاع فى عصر استخدام القطارات والطائرات ...

قالت البيريه :

ـــ طبعا . وإذا كان الفن صادقا فلابد أن يكون متفقا مع نبض الحياة التى ينبع منها ..

قالت العصا :

ـــ وإذا كان نبض الحياة والزمن سريعا واستخدمت عندئذ القطارات والطائرات وبقى الفن متراخيا فى بلد من البلاد ، كما كان فى عصر الدواب ؟!

قالت البيريه :

ـــ هذا إذن ما يسمى التخلف .

قال الحمار :

ـــ ومن المسئول ؟.. الفن ؟ أو البلد ؟.. إذا كان البلد هو المتقدم ، وقد نضج إحساسه بإيقاع العصر والزمن فإنه سيرفض الفن المتخلف ..

قالت البيريه :

ـــ تريد أن تقول إن الفن المتخلف لا يمكن أن يعيش إلا فى بلد متخلف ؟..

قال الحمار :

ـــ أظن هذا هو المنطق ...

فقالت العصا :

ـــ هذا شيء يدعو إلى اليأس .. إذا كان هناك مثل هذا الانسجام التام بين الفن والبلد فى هذا التخلف ، فكيف يحدث إذن التقدم ؟!..

قالت البيريه :

ـــ إن التقدم يحدث دائما من صيحة .. صيحة تهز المتراخين ، وتحرك المتكاسلين فى نعاسهم الذى اعتادوه !.

فقالت العصا :

ـــ لو كان الصياح ينفع لحدث التقدم منذ زمن طويل ..

قال الحمار :

ـــ ليس المقصود هنا الصياح بالفم ، ولكنه الصياح بالعمل ...

فقالت البيريه :

ـــ ها هو ذا صديقنا الحمار قد فهم ... فعلا هذا هو المقصود والمعول عليه دائما ... الصيحة الفعلية فى عمل فعلى ...

قالت العصا :

ـــ وهل العمل المتقدم الجديد يلقى دائما التأييد ؟!...

قالت البيريه :

ـــ كل عمل متقدم جديد هو ثورة ... وكل ثورة تواجه فى أول أمرها برفض واعتراض من الكثيرين المستنيمين للقديم ، ولكن يكفيها قلة من

المؤمنين بها والمتحمسين ...

قال الحمار :

ـــ حقا ... ليس من السهل إيقاظ نائم متلذذ بنومه دون أن تسمع منه الشتم واللعن لأنك أيقظته ... ولكنه لابد أن يستيقظ وينشط للسير معك إذا أقنعته بعمل فى يدك يجد فيه الخير له ..

السياسة بين الفكر والعمل

قالت العصا :

— من الملاحظ أن كثيرين من أهل الفكر يبتعدون عن الالتحاق بالتنظيمات السياسية ، مع أن منهم المؤيد بفكره لبعض برامجها كما أن منهم المساهم برأيه فى صياغة هذه البرامج أو تجسيد مراميها أو الموحى بأهدافها ..

فقالت البيريه :

— لعل السبب فى ذلك هو أن رجل الفكر الرافض للانتماء إلى التنظيم يدرك الفرق بين الفكر السياسى والعمل السياسى ، كما يدرك أن العمل هنا يدخل فيه « التاكتيك » والمفكر إذا اشتغل بالتاكتيك انقلب إلى سياسى .

قال الحمار :

— وما هو المانع ؟.. أليس من النافع أن يقترن الفكر بالعمل ؟..

قالت البيريه :

— هذا صحيح . ولكن فى مجال السياسة العمل يتخذ صورا كثيرة يحتاج بعضها إلى وسائل وأساليب « تاكتيكية » لا يحذقها ولا يفهمها الكثير من أهل الفكر ..

قالت العصا :

— وإذا استطاع رجل فكر أن ينجح أيضا كرجل حزب أو تنظيم فهل

يغير هذا من صفته ؟

قال الحمار :

ـــ المهم أن يغير أولا من طبيعته .

قالت البيريه :

ـــ فعلا . يجب أن نعرف طبيعة رجل الفكر .. لقد كان « جوركى » متفقا تمام الاتفاق مع « لينين » فى الفكر وفى الهدف ، ولكنه لم يستطع أن يسير مع صديقه فى مشواره السياسى ، وآثر الانزواء . لقد جمع بينهما الفكر وفرق بينهما العمل ..

قال الحمار :

ـــ ما هو العمل الآن ؟.. ذلك الذى يفرق بين أصدقاء الفكر الواحد ؟

قالت العصا :

ـــ إنه ليس العمل الذى تعرفه أنت يا صديقنا العزيز .

وقالت البيريه :

ـــ إن العمل السياسى شيء مختلف .. إنه العمل على تحقيق الأهداف والمناهج والبرامج الصادرة عن الفكر السياسى بالوسائل والأساليب الموصلة إلى ذلك . وهنا موضع التباعد بين رجل الفكر ورجل السياسة . إن جوهر الهدف واحد للرجلين فى أكثر الأحيان ولكن وسيلة الوصول إلى الغاية هى التى تباعد بينهما . فرجل السياسة يرى ضرورة الحصول على

السلطة ليحقق الغاية ولا بأس عنده أحيانا من « تاكتيك » يقوم على مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » وهى طبيعة واستعداد .

قال الحمار :

ـــ هل هذا أسلوب لما يسمى بالتاكتيك أن يكون قائما على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، أى على حد تعبير المثل الشعبى « اللى تغلب به العب به » !!

قالت البيريه :

ـــ لا . ليس هذا حتميا ولا ضروريا . فالأصل فى الوسيلة أو التاكتيك فى مجال السياسة أن تكون وسائلها داخلة فى نطاق مبادئها . فالخروج عن المبدأ السياسى واستخدام وسيلة للوصول تتعارض مع جوهر المبدأ الأصلى هو نوع من التاكتيك غير مستحسن ، وقد يكون خطرا على المبدأ نفسه ..

قالت العصا :

ـــ ولكن هذا لا يمنع من أن يلجأ العمل السياسى إلى أسلوب المناورة والمداورة لكسب قضيته ..

قالت البيريه :

ـــ طبعا فى نطاق ما هو مشروع .. فالعمل السياسى يجب أن يعمل دائما على كسب قضيته .. وإلا لما سمى عملا وهنا يبرز الفرق الحقيقى بين رجل الفكر ورجل السياسة . إن القضية عند الاثنين واحدة : وهى العدالة والحقيقة . ولكن المفكر نظر إلى القضية من زاوية القاضى ،

والسياسى ينظر إليها من زاوية المحامى .

قالت العصا :

— حقا .. إن القضية عند القاضى هى البحث عن مكان الحقيقة ، والقضية عند المحامى هى الدفاع عما يراه هو الحقيقة ...

قال الحمار :

— والبحث موضع حيرة وتناقض . ولذلك قد يكون رأى القاضى فى الابتدائى غيره فى الاستئناف أو النقض . أما المحامى فرأيه ثابت وخطه محدد فى كل المراحل ... كذلك الفكر فهو عرضة للتغيير أما العمل فهو الثبات والتقرير .

الفنان والجمهور

قالت العصا :

ــ قضية الفنان والجمهور قديمة . وهى تثير التساؤل : هل من واجب الفنان أن يحترم الجمهور فى كل الأحوال ؟..

قالت البيريه :

ــ أذكر فى ثلاثينيات هذا القرن أن حضرت المهرجان الفنى الكبير الذى يقام فى مدينة سالزبورج ، وكان من أهم برامجه حفلات الموسيقى العظيم «توسكانينى» وهو فى قمة المجد العالمى . ومن الجماهير مَن حضرت خصيصا من أجله قادمة من كل فج عميق . وأنا منهم . فما أن ظهر حتى دوت القاعة الواسعة بتصفيق هز أركان المكان هزا ، فما الذى فعله ذلك الفنان ؟

قال الحمار :

ــ التفت طبعا إلى الجماهير وانحنى لها طويلا ...

قالت البيريه :

ــ على العكس أدار ظهره للجماهير والتفت إلى فرقته الموسيقية وأمرها بالشروع فى العزف .

قالت العصا :

ــ ما معنى هذا ؟! أهو عدم احترام للجمهور ؟!

فقالت البيريه :

ـــ معناه احترام للفن . فهو قد أراد أن يفهم ذلك الجمهور أن تصفيق التحية يجب أن يوجه للفن وليس لشخصه . لأن شخصه لا يساوى شيئا بغير فنه . ولكى تكون التحية للفن يجب أن تكون التحية والتصفيق بعد أن يؤدى هذا الفن ويعرضه . ولذلك رفض أن يجعل شخصه يلتفت ليتقبل التحية قبل عرض الفن ...

وهنا سأل الحمار فى عجب :

ـــ وماذا فعل الجمهور ؟!.

قالت البيريه :

ـــ فهم الجمهور قصده وصمت فى الحال تأدبا ، وجعل يصغى إلى الفن فى سكون وخشوع ـــ إلى أن انتهى العزف فالتفت الفنان توسكانينى إلى الجمهور الذى استقبله بالتصفيق المدوى ، وعندئذ فقط انحنى الفنان العظيم للجمهور . وقد تقبل منه التحية والتقدير ، مسرعا بالإشارة إلى فرقته كلها كى تنهض لتتقبل معه ما تقبل باسمها من تحية وإعجاب ...

فقالت العصا :

ـــ حقا . هذا احترام للفن .

قال الحمار :

ـــ وهذا أيضا احترام للجمهور . لأن الجمهور الذى يستحق الاحترام هو الجمهور الذى يحترم الفن ..

قالت البيريه :

ـــ إن الجماهير فى البلاد المتحضرة لا يمكن أن تصفق تحية للفنان إلا بعد العرض . ولعل ما رأيته فى حالة توسكانينى كان استثناء لظروف سنه فى أواخر أيامه فلم تملك الجماهير نفسها من تحيته عند رؤيته ، ولكن عندما صحح لها تصرفها وذكرها بواجبها نحو الفن فهمت فى الحال حقيقة الموقف وما ينبغى أن يكون التصرف ...

قالت العصا :

ـــ أذكر أن الأمر كان يحدث على هذا النحو حتى فى بلادنا فى العشرينات والثلاثينات وما قبلها . كانت جماهير المسرح لا تصفق للممثلين إلا بعد العرض . أما اليوم فإنه ليدهشنى ويخجلنى أن أرى الجماهير تستقبل كل ممثل يظهر بالتصفيق ، وهو يترك دوره وينسلخ من فنه لينحنى وينحنى ليستدر التصفيق ، على نحو يثير الرثاء على مصير الفن وكرامة الفنان الذى هبط إلى شحاذ يستجدى التصفيق ...

وعاد الحمار يسأل :

ـــ وعلى من تقع المسئولية ؟ على الجمهور الذى يصفق قبل عرض الفن ، أو على الفنان الذى ينحنى متقبلا التحية لشخصه قبل أداء فنه ؟..

قالت البيريه :

ـــ المسئولية كلها تقع على الفنان . لأن الفن هو الذى يربى الجماهير ويهذب ذوقها ويغيرها ويشكل مصائرها . فالفنان الحقيقى الذى يفعل ما فعل توسكانينى عليه هو أن يصحح تصرف الجمهور بكل هدوء ، بأن

يعتبر التصفيق فى وقت غير مناسب كأن لم يكن ، ويمضى هو فى عرض فنه ، حتى يفهم الجمهور السلوك القويم تجاه الفن والفنان ...

قالت العصا :

— نحن نتكلم عن الفنان ... الفنان الحقيقى الذى يحترم الفن قبل أن يحترم الجمهور . ولكن .. هل هو موجود عندنا إلا فى النادر ؟..

كتابة التاريخ

كان الموضوع الذى يشغل الفرسان الثلاثة « العصا » و « البيريه » و « الحمار » هو موضوع كتابة التاريخ ..

فقالت العصا :

ــ هل المعوّل عليه فى كتابة التاريخ هى الوثائق الصماء أو شهادة الأحياء ؟

فقالت البيريه :

ــ وما هى الوثائق الصماء ؟.. إنها شهادة الأحياء فى عصرها ... إلا إذا كان المقصود هو كتابة تاريخ معاصر لم يزل شهوده على قيد الحياة عند تدوينه. فمثلا عند كتابة ثورة قديمة مثل الثورة العرابية لا يمكن أن يوجد أحد من الأحياء اليوم قد عاصرها فليس من وسيلة لمعرفة ما حدث فيها إلا الرجوع إلى تلك الوثائق الصماء أى المدونات والكتابات ، أى شهادات مدونة لمن كانوا أحياء فى وقتها .

فقالت العصا :

ــ وما القول إذا كان المطلوب كتابة تاريخ فترة لم يزل شهودها من الأحياء ؟

فقالت البيريه :

ــ فى هذه الحالة يكون من الواجب الاستماع إلى شهادة الأحياء إلى

جانب الاطلاع على الوثائق الصماء . ولكن قبل كل شيء لابد من تحديد القائم بعملية التدوين . هل هى الدولة أو الأفراد؟إذا كانت هى الدولة فإن الدولة لا تقوم بوظيفة المؤرخ ، ولكنها تتيح للمؤرخ أن يؤلف ، بأن تضع تحت يديه ما لديها من وثائق رسمية صماء وعليه هو أن يستخرج منها الحقائق مستعينا فى ذلك بشهادة المعاصرين ومعايناته الشخصية . كما فعل أمثال ابن إياس والجبرتى ..

فقال الحمار :

— إذن الدولة لا تكتب التاريخ . حتى وإن استعانت فى ذلك بمؤرخين ؟..

فقالت البيريه :

— استعانة الدولة بمؤرخين أو تأليف المؤرخين فى ظل الدولة يذكرنا بما كتبه المؤرخون فى روما عن كليوباترا التى كانت روما تعتبرها العدو الذى اختطف حكامها العظام يوليوس قيصر ومارك أنطونيوس . ولذلك أشبعها مؤرخو روما فى ذلك العهد تجريحا وتشهيرا ، وصوروها فى صور العاهرة الشرقية الفاجرة ، ثم أنصفها بعد ذلك المؤرخ الإغريقى بلوتاركس بإظهارها فى صورة أخرى .. ولذلك ليس للدولة أن تكتب هى التاريخ ، حتى وإن كانت فى كتابته أنزه المؤرخين ، ولكن عليها أن تصدر الوثائق الرسمية التى يستمد منها المؤرخون ما شاءوا تحت مسؤلياتهم الشخصية .

فقال الحمار :

— وهل هذا يحقق صدق التاريخ ؟.. أو أنه يساعد على اضطرابه

وخلطه وتعدد صوره تبعا لتعدد المتناولين من المؤلفين المختلفين فى نظراتهم واتجاهاتهم ؟..

فقالت العصا :

— فعلا هذا لا يحقق صدق التاريخ ، ولكنه يحقق إبراء الدولة من تهمة استخدام سلطتها فى كتابة تاريخ قد يوصف بأنه مغرض أو موجه ...

فقال الحمار :

— يعنى على أى وضع كتابة التاريخ لا تسلم من المخاطر .

فقالت العصا :

— نعم . لأن التاريخ شهادة كشهادة الشهود فى أى قضية أو حادثة . أو أى محضر جلسة فى محكمة من المحاكم تجد الشهو قلما تتفق تماما وبالنص الواحد على صورة واحدة من صور الوقائع . وإن هى فعلت بهذه الدقة الحرفية شك القاضى فى الشهادة وخشى أن تكون ملفقة أو مرتبة ترتيبا ذكيا ماهرا لا يعكس الحقيقة تماما ..

فقال الحمار :

— وكيف تعرف الحقيقة إذن والصدق فى التاريخ ؟

فقالت العصا :

— الله أعلم ...

وقالت البيريه :

— نعم — الله أعلم — ولكن على قدر اجتهادنا نحن البشر فإن استخلاص الصدق أو الحقيقة قد نصل إليه عن طريق مناقشة الشهادات ومواجهة بعضها ببعض والمقارنة بينها ووزنها كما توزن الدنانير الذهبية

لنعرف ثقل كل منها ، لنخرج من كل هذا الفحص بما هو أقرب إلى التصديق .

فقال الحمار :

ـــ أظن هذه هى وسيلتنا المتاحة لنا ... أما إذا لم نجد أمامنا سوى مؤرخ واحد أو شاهد يروى لنا قصة واحدة بصورة واحدة ، فليس لنا إذن أن نقارن أو نزن أو حتى أن نفكر . فقد تجمدت عقولنا على هذه الصورة وعندئذ نحن وحظنا . إذا كانت صادقة فالحمد لله . أما إذا كانت زائفة فإنا لله وإنا إليه راجعون ..

مأساة العظماء

قالت العصا :

ــ من عجائب الأمور أن هناك صنفا من الناس يمكن أن يكونوا أبرياء ومذنبين فى عين الوقت . فهم لم يرتكبوا الذنب ومع ذلك يحاسبون عليه ...

قال الحمار :

ــ كيف يكون ذلك ؟.. هل يعقل أن يقوم غيرى بعمل خاطىء وأنا الذى يتهم بالخطأ ؟!. لعل المقصود هنا هو الجهل بوجود الفاعل الحقيقى ...

قالت العصا :

ــ إذا كان الأمر كذلك كان عجيبا ولكن العجيب هو أن الفاعل الحقيقى معروف . ولكنه ليس هو الذى يتحمل نتيجة الخطأ . وليس اسمه هو الذى يقترن بهذا الذنب على مر الأيام والأعوام ..

قال الحمار :

ــ هذا عجيب حقا !..

قالت البيريه :

ــ فعلا . لو كان الأمر يتعلق بالشخص العادى لكان ذلك عجيبا . ولكن المفهوم أن ذلك لا يحدث فى الغالب إلا للقادة والزعماء . فما من

أحد على مر الأيام والأعوام إذا ذكرت موقعة — واترلو — الشهيرة لم يعتبرها هزيمة! لقد اقترن اسمه بهذه الهزيمة وتحمل نتائجها ونفى طول حياته إلى أن مات فى منفاه وحيدا شريدا ملعونا من الناس كل هذا وهو فى الحقيقة لم يكن السبب فى الهزيمة . فقد خطط للموقعة بكل دقة وعناية وواجه غريمه ولنجتون وكاد ينتصر عليه . وجعل ولنجتون يصيح فى المعركة — إذا لم ينقذنا حليفنا بلوخر بجيشه البروسى فإن نابليون سوف يخرطنا كما يخرط البطاطس — !..

قالت العصا :

— حقا . ولم يكن نابليون مع ذلك غافلا عن جيش بلوخر . لقد وضعه فى حسابه وتخطيطه . وخصص له جيشا مستقلا بقيادة جروشى أحد مارشالاته .

قالت البيريه :

— نعم .. هذا المسئول الحقيقى عن هزيمة واترلو .. لقد أفلت منه بلوخر ولحق بحليفه ولنجتون . فما شعر نابليون إلا وجيش بلوخر البروسى أمامه يساند ولنجتون . بينما هو وحده فى الميدان بجيشه المرهق يصرخ متلفتا :

— أين جروشى ؟ أين جروشى ؟...

أما مارشاله جروشى بعد أن أفلت منه جيش بلوخر فقد وقف فى مكانه متبلدا يسمع مدافع نابليون ولا يخطر له أن يسارع إلى الانضمام إليه ليقوم بنجدته ..

قال الحمار :

ـــ هذه مأساة !..

قالت البيريه :

ـــ نعم . مأساة حكم التاريخ على العظيم الذى يتحمل أوزار غيره ...

قال الحمار :

ـــ وهذا المارشال المهمل الذى كان سببا فى هزيمة واترلو ؟..

قالت البيريه :

ـــ عاش إلى سن الحادية والثمانين فى قصره !..

قالت العصا :

ـــ ألا يمكن أن تسمى هذا ظلما من التاريخ ؟..

قالت البيريه :

ـــ إن محكمة التاريخ ليست مثل محكمة الجنايات . إنها لا تهتم بالفعل إنها تهتم بالنتيجة . ولا تهتم بالفرد . إنها تهتم بالأمم ..

قال الحمار :

ـــ وما ذنب العظيم الذى يتحمل هذا الظلم ؟

قالت البيريه :

ـــ ذنبه أنه عظيم !.. أى ذلك المخلوق الذى كتب عليه أن يقود أمته .. فليتحمل هو إذن هذه القيادة ..

قال الحمار :

ـــ يظهر أن داخل كل عظيم مأساة .

قالت البيريه :

ـــ نعم . ولهذا كانت المآسى الإغريقية وما سار على نهجها تدور حول العظماء والقادة ...

قالت العصا :

ـــ لأن مأساة الفرد العادى لا تلحق إلا بالفرد . أما مأساة العظيم فإنها تلحق بالأمة وتغير وجه التاريخ ..

ذكريات

اليوم أقبل الصيف ، وجاء موسم الإجازات وطاب للكائنات المكدودة الركون إلى الراحة والاسترخاء ، فقد انصرف الفرسان الثلاثة « العصا » و « البيريه » و « الحمار » عما يثقل على النفس ، بحثا عن حديث هين لين .

فكانت البقية فى حديث الذكريات ..

قالت العصا :

— من منا يا ترى الأقدم ؟... ربما كنت أنا ... فقد وضعت يدى فى يد صاحبى فى آخر العشرينات ..

فقالت البيريه :

— بل أنا الأقدم ... فقد وضعنى صاحبى على رأسه فى أوائل أو وسط العشرينات !.

فقال الحمار :

— أنا إذن أقدم الجميع . فقد عرفنى صاحبى منذ نحو سبعين عاما !.

قالت البيريه :

— فليذكر إذن كل منا الظروف والملابسات التى تم فيها اللقاء . أما أنا فقد كان لقائى به فى باريس . ولم أكن أول ما وضع على رأسه . فقد سبقتنى قبعة ميزانية اللون ، لم يلبث أن نبذها واستبدل بها أخرى سودا

عريضة الأطراف مما يضعه الفنانون فى مونمارتر فى ذلك العهد البعيد . ولكنها أتعبته لاضطراره إلى رفعها كلما أراد التحية ، إلى أن اهتدى أخيرا إلى أنا ... أى البيريه ، فقد وجدنى مريحة مثل الطاقية المصرية يستطيع أن يطويها ويدسها فى جيبه ، ولا يحتاج إلى رفعها للتحية .. واحتفظ بى وأدخلنى فى مصر وجعل يكتب عنى ويروج لى حتى كثر من يلبسنى ، لما عندى من مزايا السهولة فى اللبس والرخص فى الثمن والشبه بالطاقية البلدية . وعم استعمالى حتى شملت الجيش والشرطة.ولكن العجيب أنى فى باريس اليوم كدت أختفى من فوق الرؤوس ... فالرؤوس الآن عارية ..

قالت العصا :

ـــ أما أنا فقد كانت معرفتى به مرتبطة بعمله فى القضاء . فهو عندما عينوه وكيلا للنيابة فى الأرياف ، كان يقوم لتحقيق الجرائم ومعه سكرتير كهل ابيض شعره وجعل له وقارا ، فكان رجال الأمن فى الريف من عمد وشيوخ خفر يستقبلون السكرتير بالاحترام على أنه وكيل النيابة ، ويهملون الوكيل الأصلى لمظهره الشاب ويحسبونه هو المرؤوس . فأشار بعض العارفين المجربين على صاحبنا أن يحمل عصا لتوحى بأنه هو الرئيس ، إذ لا يعقل فى الريف أن يكون المرءوس هو الذى يحمل العصا فى حضرة رئيسه .. واشترانى وحملنى فى يده ، فلم يخطئه بعد ذلك العمد والخفراء ، فما أن يحل فى مكان حتى يهرع إليه الجميع موقنين أنه وكيل النيابة ... ومنذ ذلك الوقت الذى يقرب من نصف قرن وأنا ألازمه ملازمة ذراعه فقد أصبحت عادة من عاداته الراسخة ، بغير مصاحبتى له

واتكائه على يتعثر فى طريقه ، وخاصة اليوم فى شيخوخته .

قال الحمار :

ـــ أما علاقتى أنا به فهى أعرق وأوثق . فقد ارتبط صباه بصباى . كان صبيا يلعب فى الغيط بقريته الصغيرة ، وكنت جحشا أمرح وأقفز إلى جانبه وسط البرسيم الأخضر اليانع كلما هل الربيع ... فنشأنا معا . وذهب هو إلى المدن ، وبقيت أنا فى الريف ، ولكنه كلما جاء إلى القرية سأل عنى ونعود نتناجى بغير لغة كلام فكل منا يفهم الآخر بغير حاجة إلى حديث ، وقد رق لحالى عندما رآنى فى كبرى يلقى على ظهرى غبيط السباخ وأعمل وأكدح طول يومى من أجل حفنة فول أو شعير ، فكان يوصى بى خيرا ... ثم كنت دائما فى ذاكرته وعلى لسانه وسن قلمه ، يجرى باسمى الأحاديث ، ويدافع عنى وعن الكادحين المظلومين من أمثالى ويحاول أن يزيل ما لحق بى منذ القدم من صفات الذلة والمهانة والسخرية . فقرن اسمى باسمه ..

وهنا ضحكت « العصا » و « البيريه » فى وقت واحد .

فقال لهما الحمار :

ـــ ما الذى يضحككما فى هذا ؟.

فقالت العصا ومها البيريه :

ـــ تذكرنا يوما مر فيه بائع كتب متجول ينادى على المقاهى بكتاب « حمار الحكيم » فاستوقفه أحد المشترين وطلب نسخة وهو يقول : بكم كتاب « الحكيم الحمار » وقال له زبون آخر : « حمار الحكيم » ؟. هل « توفيق الحكيم » غير اسمه ؟!.

فقال لهما الحمار :

— ما دمتم تريدون الضحك فإليكم ما حدث يوما فى جلسة جنح حضرها صاحبنا : أتهم شخص بأنه سب أحد البيكوات بقوله له « يا حمار » . فقال له القاضى : « كيف تقول للبيك يا حمار ! فقال المتهم : هل اللى يقول للبيك يا حمار يعاقب ؟.

فقال له القاضى : طبعا يعاقب . فقال المتهم سائلا : « واللى يقول للحمار يا بيك ؟ فرد القاضى : هذه ليس فيها عقوبة ... فأسرع المتهم يقول للقاضى : طيب سعيدة يا بيك !!

الحب فى جهنم

طابع الصيف عندنا فى أكثر أيامه غبار يعمى الأبصار . الحر لافح يشوى الوجوه ، وشمس تلقى على الرؤوس نارا من جهنم والعياذ بالله . والويل لمن يمشى فى الطريق ساعة الظهيرة . فما من شجرة تظله وتدرأ عنه السعير .. وشاء الحظ العاثر للفرسان الثلاثة : « البيريه » و « العصا » و « الحمار » السير فى ذلك الوقت فى أحد الطرقات ، وقد أرهقهم القيظ وقطع أنفاسهم وأسال العرق على أجسامهم ، وهم يشتدون فى المشى للخلاص من هذا الكرب والوصول إلى البيت ... وإذا بشخص قد اعترض طريقهم وقال فى أدب :

ـــ من فضلكم .. أتسمحون لى بسؤال ؟.

فقالت العصا فى صوت ضيق :

ـــ أظن الوقت غير مناسب ..

فقال الشخص :

ـــ إنه مجرد سؤال بسيط ..

فقالت :

ـــ اسأل بسرعة ، لأن الحر شديد كما ترى !.

فقال الشخص :

ـــ سؤالى هو .. هو ..

فقالت العصا :

— أظن تريد أن تسألنا عن اسم شارع ..

فقال الشخص :

— لا .. لا .. ليس السؤال عن شارع .. إنما هو عن .. عن ..

فقال الحمار نافد الصبر :

— تكلم يا حضرة المحترم .. تكلم وخلصنا ... عرقنا سال من لهيب الشمس وجحيم الحر ...

فقال الشخص :

— حالا .. حالا .. سؤالى بسيط .. أريد أن أعرف فقط وأسأل حضراتكم : ما هو الحب ؟..

فصاح الثلاثة فى نفس واحد :

— الحب ؟!!

فقال الشخص :

— نعم الحب .. إنه شيء يبدو بسيطا واضحا بديهيا ولكن إذا نحن تعمقنا فيه وحاولنا دراسته بأناة وصبر وتفصيل فإن أغواره تكشف لنا عن غوامض وغرائب ومفصلات .. ولا بأس أن أقص عليكم قصة على سبيل المثال .. طويلة بعض الشيء ولكنها تستحق أن ..

وقاطعه الثلاثة وقد هموا بالانقضاض عليه :

— أنت الذى تستحق أن !!.

أرادت العصا أن تنزل على أم رأسه .. ولكن « البيريه » استوقفتها وهى تقول :

— بل الذى يستحق هو نحن الثلاثة .. نحن الذين استمعنا إليه وصدقناه وهو يقول إن سؤاله بسيط ..

وقال الحمار :

— مهلا .. مهلا .. نسمع القصة أولا ..

وتشجع الشخص وقال :

— قصة طريفة والله العظيم .. اسمعوها أولا ثم احكموا ..

فقالت العصا وهى تتلفت حولها :

— لو كان هنا على الأقل شجرة نستظل بها ..

وقالت البيريه :

— أمرنا لله .. تفضل قص القصة واختصر من فضلك وارحمنا يرحمك الله من نار الجحيم ويدخلك بمشيئته ورضوانه جنة النعيم ..

فقال الشخص :

— جميعا إن شاء الله !..

فقالت العصا والبيريه :

— طبعا لنا النعيم .. فقد استوفينا الآن بعض نصيبنا من الجحيم ..

فقال الشخص :

— لا يوجد على الأرض جحيم أفظع من جحيم الحب !

فقال الحمار :

— يا حفيظ .. يظهر أنك مكوى .

فقال الشخص :

— ومشوى ..

واشتد لفح الشمس وأسالت شواظ العرق من الفرسان الثلاثة وهم لا يدرون ماذا يفعلون ، وقد تورطوا ولم يبق أمامهم إلا الصبر واحتمال الاستماع إلى القصة الطويلة التى يريد أن يقصها عليهم بتفصيلها هذا المحب الولهان والمعذب التعبان .. ولا يدرى غير الله كم مر بهم من وقت وهم يتقلبون على جمر ذلك الحب الذى يصغون كرها إلى قصته وليس لهم فيه ناقة ولا جمل ، إلا رائحة الشواء والكى من أجسادهم المحترقة ، ليس بالحب ، ولكن بالكرب ... وقد أقسموا فى نفوسهم أن لا يقفوا بعد اليوم لشخص يريد طرح سؤال ، فى أيام الصيف الطوال ..

وهنا قالت العصا :

ـــ الحمد لله أن أعصابنا لم تفلت منا فيحدث ما لا تحمد عقباه ..

فقال الحمار :

ـــ إذا كنا لم نحتمل الكلام فى الحب فكيف بالكلام فى غيره ؟! يظهر أننا فى حاجة إلى إجازة فى أشهر الصيف

قالت البيريه :

ـــ فعلا .. إنى لم أعد أطيق .. ليس الكلام فقط بل حتى التفكير .. من رأيى أن نسكت .. ونستريح ونريح .. ولنفترق الآن على خير .. سلام ..

وقاموا إلى الإجازة .. ومعهم .

هكذا تكلم عبد الناصر

ثورة ناصر تستقبل اليوم عامها العشرين بغير ناصر. هذا ما يردده الناس اليوم ولا شك أجمعون . ولكن وجود الجسد ليس هو كل الوجود . ولا هو بالأمر المهم فى حياة الخالقين . إن الخالق موجود دائما فى عمله . وهو يعيش حياة هذا العمل .. ويعرف أن حياة عمله تطول وتقوى بالتغذية المستمرة ، وتزهو وتجمل بالأثواب المتجددة ، وتضىء وتتوهج بمشاعل التطويرات المبتكرة . وهو يطل دائما بروحه المرفرفة فوق عمله ، وكأنه يقول للناس : « إياكم أن تدعوا عملى يذبل بالإهمال أو يخمل بالتجميد . شذبوا من أغصانه الصفراء ، وألقوا بجذوره فى ناره الخامدة . أتموا من عملى ما لم يتم ، وقوّموا منه ما لم يستقم . ولا تتوهموا أن عملا من الأعمال التى يقوم بها الإنسان أو تبدعها الطبيعة يمكن أن يصل إلى الكمال . فالطبيعة تصحح نفسها باستمرار وتعدل وتبدل فى ثمراتها طبقا لدواعى البيئة والمناخ . إن الكمال هو قبر الأعمال . وما دامت هناك حياة أى حركة أى تغيير فلابد من بحث هذه الأعمال المحبوسة فى قبر كمالها لتنفض عنها قليلا من تراب القداسة لتنهض وتمشى باحثة عن الثياب الملائمة للعصور الجديدة .. كونوا على ثقة أن تخليد الأعمال القديمة هو فى بعثها بصورة جديدة . وليس فى تركها بغبارها . وهى فى إشعار الناس بأن جوهرها حق وإن كان فى بعض نسيجها ما يحتاج إلى رتق . فالأعمال

الزائلة هى التى لا تنفع الناس ولا تبقى فى الأرض مهما ترتفع بها الهتافات والشعارات . والأعمال الزائفة هى التى تخدع الناس مهما تملأ أبصارهم بالأضواء المثيرة الخلابة .. وإذا كانت هذه الثورة اليوم تستقبل عامها العشرين . عمر فتاة نضجت لاستقبال حياة مقبلة باسمة لها بالسعادة . فإنى لست بالبعيد عنها .

أنا أيضا أبتسم لها بروحى المرفرفة وأدعو لها باليمن والهناء والفوز المبين ، فى ظل حضارة عصرية تنشئها لنفسها كما أنشأت هذه الأرض حضارة العصر القديم .. »

هكذا تكلم عبد الناصر .. بروحه التى أسمعها ..

حسين فوزى وعيده الماسى

في شهر يوليو القادم يبلغ العالم الأديب الفنان الدكتور حسين فوزى الخامسة والسبعين من عمره . وإنى أعلنها اليوم حتى يتسع الوقت أمام هيئاتنا العلمية والأدبية والفنية للعمل على الاحتفال بالعيد الماسى لرجل حمل طول حياته مصباح المعرفة ليضيء العقول والقلوب فى هذا الوطن : وكان هذا هدفه الوحيد منذ شبابه . منذ اليوم الذى ترك فيه مهنة الطب وما كان يمكن أن تدر عليه من منافع مادية ليذهب إلى بلاد النور يأتى منها بزيت يملأ به مصباحه .

كنت قد سبقت صديق العمر حسين فوزى إلى هناك . تاركا أنا الآخر مهنة المحاماة ، وانتظرته ، حتى جاء . ومنذ ذلك اليوم لم نفترق قط . كان ذلك منذ خمسين عاما بالتمام ، أى فى عام ١٩٢٥ جاء فى الخريف بعد أن حضر افتتاح الأوبرا التى ألفها « ليلة كليوباترا » التى راقنى نظمها البديع وشجعت داود حسنى على تلحينها بعد أن شكا لى كامل الخلعى من صعوبة قوافيها . كان أول ما ابتدرت به حسين فوزى عندما وضع قدمه فى باريس هو سؤالى عن تلحين « ليلة كليوباترا » ملحا عليه أن يسمعنى لحنا من ألحانها بصوته « غير الشجى » ففعل ولم أتبين شيئا من النغم فى صوته فهو عازف جيد على الكمنجة ولكنه ليس بالمغنى . فى حين لم أكن أنا بالعازف على أية آلة موسيقية ، وإن كنت أغنى لنشأتى بين عوالم الفرح .

وضاع منى الصوت منذ أكثر من ثلث قرن وأصبح حشرجة ، فى حين ظل حسين فوزى حتى اليوم معانقا الكمنجة لم يترك العزف عليها ولا الاهتمام بها لحظة واحدة . بل إنه لم يترك قط شأنا من شئون المعرفة : فلم يشغله الفن عن العلم ، فهو ما زال حتى اليوم مرتبطا بكلية العلوم يحمل نفسه فى سرور أعباء امتحانات الطلبة كل عام وهو فى هذه السن . كما لم يشغله العلم عن الأدب فهو يؤلف الكتب ويكتب المقالات بأسلوبه الممتع الرفيع . وهو لا يكل ولا يمل من التنقل هنا وهناك فى أنحاء مصر والبلاد العربية والأجنبية يلقى المحاضرات ينفع بها الناس ... إنه منار على بحر الإنسانية يلقى الضوء فى كل اتجاه ..

إلى الذين يحبون حسين فوزى من أهل العلم والأدب والفن فليفكروا معى فيما ينبغى أن نفعله تعبيرا عن حبنا وتقديرنا فى مناسبة عيده الماسى .

يوسف السباعى فى ذكراه الأولى

بدأت معرفتى بيوسف السباعى فى صورة مرحة ساخرة مماثلة لطبيعته فى الحياة وأسلوبه فى الأدب . بدأت فى عام ١٩٤٨ يوم ظهرت الطبعة الأولى من كتاب له عنوانه « يا أمة ضحكت » بكلمة منه قال فيها إنه فكر فى أن يطلب إلى « توفيق الحكيم » تقديم كتابه إلى القراء ، فنصحه الناصحون أن ينبذ هذه الفكرة من رأسه مؤكدين له أن « توفيق الحكيم » لا يتحرك إلا بالنقود ، وأنه إذا أعطاه مائة جنيه فإنه يكتب المقدمة ، وعندئذ طرح « يوسف السباعى » فى الحال هذه الفكرة من دماغه وهو يقول ضاحكا لأصدقائه : « لو كان فى حوزتى مائة جنيه لوفرت على نفسى مشكلة الكتابة » .. ومضت أعوام نشر فيها يوسف السباعى العديد من مؤلفاته الناجحة وذاع اسمه وامتلأ جيبه ، فعاد إلىّ أخيرا راسخ القدم ثابت الجنان يطلب المقدمة للطبعة الثالثة من كتابه المذكور فى وثوق و اطمئنان ، فلبيت فى الحال ورضيت أن أكتب المقدمة فى غير تردد ولا مساومة . ولم يكن ذلك لأنفى عن نفسى تهمة الناصحين ، بل لأثبت له أن الدنيا هى دائما الدنيا .. العاجزون فيها يجب أن يدفعوا ثمن عجزهم ، أما القادرون فإنهم يخدمون بالمجان لأن الناس أحيانا يكتفون من الذهب بالرنين .. قف على قدميك أولا ثم مد يديك طالبا العون .. وقد يقول قائل : « ما دمت وقفت على قدمى فما حاجتى أن أمد يدى ؟.. وهذا

ما قاله برنارد شو عندما قدمت إليه جائزة نوبل بآلاف جنيهاتها : أين كانت هذه الجائزة المالية يوم كنت ناشئا عاجزا أضرب بساعدى الضعيفتين ضرب اليأس فى أمواج الحياة المظلمة؟ أبعد أن وصلت إلى الشاطئ يلقون إلى بطوق النجاة ؟! » ولم يتلق جوابا .. لأن ذلك هو قانون الحياة ... إن أطواق النجاة لا يتعلق بها إلا من انتصر فعلا على الأمواج .. وهذا الانتصار فى بحر الأدب يحتاج إلى كفاح مرير ليظهر أثره من خلال الكتاب الأول .. وقليل من الناشئين من يجاهد فى الظلام طوال الأعوام ، ليرفع بعدئذ يده فوق بالكتاب الذى يستحق التقديم .. وتلك حالة يوسف السباعى . لقد جاءنى بعد أن عرف قراؤه ملامحه واتجاهاته فأحبوه وتبعوه حينما كتب ونشر .. فهو سهل عذب باسم ساخر ، يتناول بالرمز والسخرية بعض عيوب المجتمع المصرى ويسجل الكثير من المشاعر والأفكار التى تساور الناس فى عصره . وإن عصر يوسف السباعى قد ظفر من قلمه الحى بصفحات نضرة سوف تظل محتفظة بنضرتها إلى زمن طويل . رحمه الله رحمة واسعة وأدخله جناته خالدا فيها بما قدمه لبلاده من أعمال جليلة ومن خلق قويم ومن مشاعر جميلة .

العقـاد فى ذكراه

العقاد فى نظرى ليس الشخص المتجهم العبوس العنيف ولكنه الإنسان الودود المبتسم اللطيف . وكلما رأيته كانت له معى ندرة فكهة .

من ذلك أنه جاء لزيارتى فى مكتبى عندما كنت مديرا لدار الكتب . وكنت قبل تعيينى حرا أجلس على قارعة الطريق فى قهوتى المعتادة وعلى رأسى القلنسوة التى تسمى « البيريه » فلما عينت فى وظيفتى لبست بالضرورة الطربوش شأن الموظفين فى ذلك العهد .

ووجدنى العقاد وعلى رأسى الطربوش مكبوسا والعرق يسيل على جبينى من قيظ الصيف . فقد كنا وقتذاك فى منتصف شهر يوليو ، فنظر العقاد إلى عرقى والطربوش على رأسى حتى الأذنين وقال لى :

« انت خايف تقلع الطربوش يفتكروها استقالة » ؟!!!.

عن العيد المئوى للأهرام

هذا المقال كتبه الأستاذ توفيق الحكيم منذ حوال ٣٠ عاما ، يوم ٢١ يناير ١٩٤٥ ، وكان عمر الأهرام وقتئذ ٧٠ عاما . كان احتفال جريدة الأهرام بمرور مائة عام على مولدها مجرد حلم عابر تحدث عنه رئيس تحريرها فى ذلك الوقت ، أنطون « بك » الجميل.وعندما زار توفيق الحكيم الأهرام مهنئا بعيد الميلاد السبعين للجريدة قال لرئيس التحرير مداعبا : سأكتب إلى جريدتنا هذه مهنئا عندما تبلغ المائة من عمرها . وكان رد الحاضرين — كما هو مسجل فى مقدمة المقال — إن الحكيم « يسوف » وإنه « إذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة. . هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل : أنت لتكتب ونحن لنهنئ ؟ » .

وحسمت المناقشة عندما طلب الحاضرون من توفيق الحكيم « بخياله بعيد المدى » أن « يتصور » الأهرام وقد بلغ عمره مائة سنة .

وكتب الأستاذ توفيق الحكيم المقال . ومد الله فى عمره حتى عاش احتفال الأهرام بعيده المئوى .

ولقى الجميع ربهم باستثناء كاتب المقال — الأستاذ توفيق الحكيم — والفنان صاروخان الذى رسم الصورة « متخيلا » الحكيم وهو يكتب المقال فى العيد المئوى .

كان المقال الأول يطلب من أنطون بك الجميل رئيس تحرير الأهرام فى

عام ١٩٤٥ .

والتعليق الذى يكتبه توفيق الحكيم على مقال الأمس تم بطلب من على حمدى الجمال رئيس تحرير الأهرام السابق .

واليوم ما هو رأيى فيما قلت وتنبأت منذ ثلاثين سنة ؟.. إنى الآن أرجع بفكرى لأحاول تذكر ما قلت . كما كنت فى الماضى أمد خيالى إلى الغد محاولا رؤية ما هو آت ... لقد كنا فى تلك الليلة .. ليلة أول يناير ١٩٤٥ مجتمعين فعلا فى ندوة الأهرام كما قال رئيس تحريرها وقتئذ أنطون الجميل فى تقديمه لخطابى .. لقد كانت ندوة تضم شخصيات البلد من كل صنف ولون.. منهم الوزراء وأحيانا رؤساء الوزارات أثناء التقاعد ، ومنهم الشعراء والأدباء ، بل أيضا مشاهير المحامين والمهندسين والأطباء ... منهم الزائر الدائم المنتظم ، ومنهم الوافد المتردد من حين إلى حين .. عقول مصر كلها كان لابد لها أن تمر يوما وأن تصادف فى ندوة الأهرام ... وما كان العدد يزيد مع ذلك كل ليلة على العشرين ، فحجرة أنطون الجميل ما كانت تتسع لأكثر من ذلك العدد . وكان هو يجلس إلى مكتبه يباشر عمله الصحفى فى حضور المجتمعين ، وهم يسمرون ويتناقشون فى صخب أو هدوء حسب الأحوال . وهو مشغول عنهم بعمله ، ويشارك أحيانا فى الأحاديث بفكرة طارئة أو بضحكة لنكتة عابرة .. كانت له مقدرة على التركيز فى العمل وسط هذا الجمع الصاخب . إلا إذا احتاج الأمر إلى تفرغ خاص فإنه يتركنا لحظات إلى حجرة صغيرة ملتحمة بمكتبه، بها جهاز تليفونى للمكالمات المهمة والسرية .. وكنا نحن أعضاء الندوة لا نبدأ افتتاحها إلا قبل منتصف الليل

بساعة أو ساعتين لنتيح له وقتا يصرف فيه شؤونه ، ونجلس نحن فى مقهى بار اللواء المواجه لمبنى الأهرام حتى تحين ساعة الندوة . وكان مقهى بار اللواء ، باسمه المنسوب إلى جريدة الزعيم مصطفى كامل ، مشهورا بروداه من رجال السياسة والصحافة والأدب .

والعجيب فى ذلك العهد أن اختلاف الانتماء الحزبى واحتدام المناقشات بين كل حزب لم يكن يمنع من لقاء الجميع فى ندوة واحدة .. كان هناك تفريق بين الخصومة السياسية والخصومة الشخصية ..

فإذا دار حديث فى السياسة كان من الطبيعى أن يعصف الجو بالنقاش الحزبى فإذا انقلب الحديث إلى موضوعات الشعر والأدب والفن ونحو ذلك فإن الجو يصفو بين الجميع على اختلاف ألوانهم الحزبية وكأنهم أبناء أسرة واحدة : أسرة الثقافة بمعناها الرحب ...

لذلك ، ما إن فتح فى تلك الليلة باب الحديث فى عمر الأهرام ، وما بقى له من أعوام ليبلغ المائة ، حتى هدأ الصخب المحتدم حول المعركة الانتخابية التى كانت وقتئذ قائمة ، وجعل الحاضرون يتصورون ما سوف يكون الحال بعد ثلاثين سنة ... وهكذا اتجهوا نحوى بأبصارهم يطالبوننى بالتخيل ... وتخيلت وكتبت ما تخيلته فى صورة خطاب منى إلى رئيس تحرير الأهرام أنطون الجميل بك لم يكن قد نال البشوية بعد .. وقد نالها فعلا بعد ذلك .. أما بقية التنبؤات فهى أمام قارئ اليوم ، له أن يقلب فيها النظر ليرى ما تحقق منها وما لم يتحقق ... أما فيما جاء من تخيلات عن حياتى الخاصة فقد كنت فى ذلك الوقت عزبا لم أتزوج بعد ولا ألمح فى أفق حياتى ما يبشر بزواج ولذلك جاء التنبؤ خيالا مشوبا بالمرارة

والتشاؤم ..

أما بعد ... فقد شاء الله تعالى أن أعيش لأرى الأهرام فى عيدها المئوى بالواقع لا بالخيال .. مكررا لها التهنئة ، وأنا حزين النفس إذ أقرأ عبارة أنطون الجميل عما قاله الحاضرون فى تلك الندوة :

« .. إذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة ، هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل ، أنت لتكتب ونحن لنهنئ ؟ » ...

ولقد ذهب بالفعل إلى رحمة الله أنطون الجميل ومعه أغلب الحاضرين ، كما ذهب ذلك الماضى كله بخيره وشره كأنه حلم .. وبقى فيمن بقى معى المصور صاروخان الذى تخيلنى كيف سأكون اليوم .. ولم يكن من تقاليد الأهرام وقتذاك نشر التصوير الكاريكاتورى ، ولكن رئيس التحرير اضطر كما قال إلى خرق هذا التقليد لاستحالة نشر صورة فوتوغرافية لى بعد ثلاثين سنة !..

والآن ماذا أقول ؟... لم يعد شىء أقوله غير كلمة واحدة : كل شىء إلى زوال ومصر العزيزة هى الباقية .

الفكر .. هذه الصفحة

اليوم وقد أصبحت « للأهرام » صفحة باسم « الفكر » يجب أن نعرف أولا ما هو المقصود بكلمة الفكر ...؟ وهى كلمة تناولتها تعريفات وشروح وتفسيرات . ولكن أبسط ما أقول فيها هو أنها تعنى تأمل الأشياء بالعقل للوصول إلى المعرفة . ومن يمارس ذلك نطلق عليه وصف « المفكر » والمفكر وصف واسع شامل لأنماط عديدة من الناس، فالفيلسوف مفكر والعالم مفكر.. والأديب مفكر.. والفنان مفكر.. والمخترع والمهنى وكثيرون آخرون كلهم يشتركون فى صفة التفكير،على أن كثيرين أيضا يؤدون أعمالهم بغير ذلك النوع من الفكر الذى نخص به من نطلق عليه اسم « المفكر ».أولئك هم الأغلبية الغالبة يؤدون أعمالهم بتفكير مسبق صنعه لهم الفكر ورسمه وشق طريقه فساروا فيه دون تأمل أو مناقشة . وهذه الأغلبية الغالبة هى التى تسعى الدول المتحضرة إلى تزويدها عن طريق الثقافة بقدر من النضج العقلى يمكنها من تأمل الأشياء وفحصها ، ليخلصها من الانقياد الأعمى للفكر المصنوع الجامد داخل تعريفات وشعارات . ولقد قلت ذات يوم إن مهمة « المفكر » الحق ليست فى توجيه الرأى العام ، بل فى خلق الرأى العام . لأن التوجيه معناه الدفع والفرض والسيطرة وفى هذا التوجيه من المفكر انتصار لرأيه ، ولكنه فى ذات الوقت خذلان لآراء أخرى جديرة بالنظر . إن المفكر فى

نظرى رجل تكوين وتربية وخلق لا رجل سيطرة وانتصار فهو لا يجب أن يلبسك رأيه ، بل يجب أن يخلق فيك رأيك .وإذا بقائل يقول : « إنك تفترض أن الناس جميعا قابلون أن يكونوا أحرارا ، وتنسى أن أغلب الناس لا يستطيعون ولا يريدون أن يكون لهم رأى .. إنما هم يستسهلون ارتداء الآراء التي تصنع لهم صنعا .. » وهنا حقا المشكلة ، وإنها لتتفاقم باتساع نطاق الحضارة . وهو تناقض عجيب . فنحن نريد من الحضارة أن تنضج العقول لتفحص الآراء فإذا هى قد تؤدى إلى العكس . فإن الكسل والسرعة والسهولة وغيرها مما يقترن بتكنولوجيا الحضارة تشجع الناس على طلب الآراء المصنوعة كما يطلبون السيارات والملبوسات وأجهزة الإذاعة والتلفزيون ويقبلون هذه الآراء باسترخاء ممن يحسن صنعها لهم وتقديمها إليهم فى صناديق مجهزة مبسطة .. هنا حقا المشكلة . وهنا تزداد الضرورة لوجود المفكر المحرر الذى يذكر الناس دائما بأن يفحصوا ويحللوا ويناقشوا ما يقدم إليهم من ملبوسات الآراء الجاهزة ومصنوعات الشعارات الموضوعية . وأن لا يقبلوها إلا بعد أن تمر من مصفاة العقل والمنطق والاقتناع التام .. ولعل صفحة « الفكر » هذه التى يعرضها « الأهرام » اليوم على قرائه أن تكون داعية إلى الاهتمام بالتفكير وبالعقل ، إذ حث القرآن الكريم الناس على أن يعقلوا وأن يتأملوا فى خلق الله وقدرته وعظمته .

والله ولى التوفيق ..

أذكر ... وأنا طفل

يعيش الإنسان مع ذكرياته الأولى أجمل اللحظات ، والدليل على ذلك هي تلك البسمة البريئة التي ترتسم على وجه أي شخص نطلب منه أن يحكي لنا قصة من طفولته .. بل أكثر من ذلك .. فإننا نجد أنه يتحول إلى طفل وهو يقصها علينا .. بنفس الحماس ... ونفس الانفعال .. كأنه يعيشها من جديد .

واليوم يحكي لنا الكاتب الكبير توفيق الحكيم هذه الحكاية بلسان الطفل الصغير الذي يعيش بداخله وبداخل كل فنان كما يقول هو ..

« لم تكن الألعاب الرياضية في المدارس تستهويني .. لذلك كنت أمر بجوار الفريق المتحمس لكرة « الشراب » عند انصرافي من المدرسة دون حتى أن أتوقف لألقي عليهم نظرة .. إلى أن كان ذات عصر ، وجدت أحد أصدقائي يعترض طريقي ويقول :

— تعال قف حارسا للمرمى في فريقنا لأنه ينقصنا واحد .. فلما اعتذرت بقولي إني لا أعرف هذه اللعبة ، قال إنها من أسهل الأمور ، وما علي إلا أن أقف بين حجرين يمثلان المرمى وأمنع الكرة من الدخول بينهما ... وقبل أن أجيب كانوا قد أحاطوا بي ووضعوني وضعا وسط مرماهم .. فوضعت كتبي في ناحية والحجر في الناحية الأخرى ، وبقيت أرقب اللعب الحامي من بعيد .. فإذا بموج المتزاحمين من الفريقين كل

يدفع الآخر بكتفه والكرة بقدمه ويصرخ ويشتد الضغط على المرمى الذى أنا حارسه .. وانتشر التراب فوسخ الثياب ، وثار الغبار فأعمى الأبصار وملأ الخياشيم ، فتركت المرمى وذهبت وأنا أسب مثل هذه اللعبة السخيفة ، وأسخر من لاعبيها . ولم يفطن أحد فى زحمة الهجمة والمعمعة إلى أن المرمى خال خاو لا حارس له إلا الله !... لكن أحدهم لمحنى فجأة فاقترب منى وقال برفق :

— أرجوك المسألة جد وتهمنا . ولا يصح أن ننهزم أمام الفريق الآخر وأنت حارس مرمانا .

فأثر قوله فى نفسى ونهضت قائلا له :

— اطمئن ... لن ننهزم أبدا ، ولن تدخل الكرة مرمانا أبدا ...

ووقفت فعلا بين حجر المرمى وكتبى. ولكنى أمام كل هجمة من الفريق الآخر كنت أزحزح الحجر والكتب بعيدا دون أن يشعروا ... وأصبح بذلك مرمانا متنقلا متحركا لا يمكن أن تصل إليه كرة الخصوم أبدا ، أما أنا فقد مللت اللعب بعد قليل وذهبت غير آسف على ما يمكن أن يدخل المرمى من كرة أو غيرها .

(تمت بحمد الله)

فهـرس

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع صفحة

SS

رقم الإيداع ٣٣٣١ / ١٩٨٨

الترقيم الدولى ٢ ــ ٠٤٠١ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٦٠٠ قرش